

هنري برجسون  
وتطور الحياة والإنسان

دراسة، تحليل، نقد

إعداد  
خادم حسين إلهي بخش

بسم الله الرحمن الرحيم

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابه الطيبين الطاهرين، ومن سلك سبيلهم وترسم خطاهم ونهج منهجهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن هنري برجسون يُعد أحد الأركان الأربعة – كارل ماركس، سيجموند فرويد، إميل دور كايم – للفكر الغربي، الذي سطا على الفكر في العالم الإسلامي، وعلى أحد هؤلاء الأربعة يبني كل من يريد نقض الثوابت الإسلامية، بل نقض الثوابت البشرية جمعاء. والمفكرون تجاه أفكار برجسون فيما خَلَفَهُ من أبحاث ثلاثة أصناف:

**الصنف الأول:** مادح يصل بالرجل وبأفكاره عنان السماء، لا يرتضي له إلا رئاسة الفكر الفلسفي الحديث، ولا شك أن الإعجاب بالإنسان يحجب عن المؤلف كل مساوئه، ولا يرى فيه إلا النموذج الأعلى للإقتداء، بغض النظر عما قدمه للبشر من فكر صالح أو فكر فاسد، فهؤلاء يعجبهم كل جديد، حتى ولو كان سمًا قاتلاً،

ويمثل هذا الجانب كتاب الفلسفة الحديثة، ويتزعمهم أحمد أمين وزكي نجيب محمود (١) وينضم إلى صفهم معظم المتخصصين في العقيدة والفلسفة، ويمتاز هذا الصنف في كتاباته بأمرين:

١- إدخال المصطلحات الغربية الفلسفية إلى اللغة العربية، كعلامة للقوة والغلبة، وتحسينها في أذهان القراء على أنها سر التقدم والرقي البشري، وحث الناس على الأخذ بها دون شعور.

٢- وجود قائمة المصطلحات الفلسفية الغربية في نهاية كل مؤلف صدر باسمهم، إما بحرفها اللاتيني، أو بالحرف العربي للكلمة اللاتينية.

ولا شك أن مثل هذا المسلك الانهزامي يريد إذابة أمة التوحيد في بوتقة الغرب الملحد، وسلبها قيمها المتوارثة جيلاً عن جيل، مبناهما الكتاب والسنة، نُجسد الخير وتمنع الشر، وتقود الإنسانية إلى الفوز والفلاح.

**الصنف الثاني:** درس الفكر الغربي، وشعر منه بانزعاج، ولكنه لا يملك القدرة الكافية على نخل الأفكار وغربلتها، من حيث الصحة والفساد، لذلك لم يصل إلى النقد المطلوب، ولا استطاع تقديم البديل المفيد للبشر، وربما كان الجو المحيط به يُطَوِّقه بطوق لا يستطيع كسره، أمثال الدكتور زكريا إبراهيم في مؤلفه الشهير: نوابع الفكر الغربي ٣ برجسون.

(١) انظر قصة الفلسفة الحديثة عدة أجزاء اشتركا في تأليفها .

وتمتاز مؤلفات هذا الصنف بترجمة العديد من الموضوعات النصية، ووضعها في نهاية مؤلفاتهم، كدليل على صدق النقد وصحة ما قاموا به من عمل، ولكن كل ذلك على خجل واستحياء.

**الصنف الثالث:** لديه الدراية الكافية عن الفكر الغربي العام، ولكنه لم يطلع على الفكر الخاص الذي يريد نقده، فجاء نقده مبهمًا، غير واضح المعالم، ولم يمنع نفسه من أن ينقل نقد غيره بحروفه وجُمَلِه وينسبه إلى نفسه، دون الإشارة إلى المصدر الذي نقل عنه.

ولا شك أن هذا الصنف عملة نادرة، كندرة الكبريت الأحمر، فمن هؤلاء الشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني في كتابه الشهير كواشف زبوف، فقد لخص فكر برجسون فقال (ثنائي في فلسفته، يرى أن في العالم اتجاهين متعارضين، هما الحياة والمادة، فالحياة تصعد وتخلق وتجاهد خلال المادة، وتسمو عليها بالزيادة في الخصوبة ودقة التركيب، أما المادة فمتقلبة هابطة مقيدة إلى غير ذلك من الآراء) (١)

#### أسباب اختيار البحث وخطته

فبما أن الوضع بهذا الغموض، ومكانة الرجل في الفكر الغربي بهذا الثقل، ثمَّيِّلُ أحدَ أركان البيت الأربعة، أضف إلى ذلك أن تبعية الفكر المسلم المعاصر للغرب من المُسَلِّمات التي لا تقبل الجدل، ومطالبة مشاهير المسلمين بتبني المنهج الذي قاد الغرب إلى الرقي المادي أمر نسمعه كل يوم.

كل ذلك قادني إلى دراسة فكر الرجل، دراسة علمية منهجية من كل جوانبها، فقرأت جل كتبه، ولم أعر اهتمامًا يذكر لمن كتب عنه، لذا لم أتطرق إلى نقد الناقدين ولا مدح المادحين.

وأنحصر عملي في أربعة أبحاث تحوي أفكار برجسون الرئيسية، أشرف بتقديمها إلى جامعة الطائف لنيل الترقية، وإلى كل من يريد معرفة الحقيقة عن الفكر البرجسوني، وجعلت اعتمادي في كل بحث على نصوص الرجل النصية، حتى أقطع الشك باليقين، وناقشت الأفكار مناقشة علمية هادفة في ضوء المنهج العلمي المتبع في مثل هذا العمل الشاق.

فجاء بحثي الأول تحت عنوان (هنري برجسون وتطور الحياة والإنسان، دراسة، تحليل، نقد) وأتبعته ب (هنري برجسون ومنبع الأخلاق، دراسة، تحليل، نقد) وجاء البحث الثالث بعنوان (هنري برجسون ومنبع الدين، دراسة، تحليل، نقد) و كان مسك الختام بعنوان (هنري برجسون و المعتقدات الدينية، دراسة، تحليل، نقد)

ووجود مبحث (حياة برجسون وعصره) في الأبحاث الأربع ليس لتكثير الصفحات وإنما لمفاداة نقد المُحكِّمين من جهة، ومقتضى الاستقلال لكل بحث من جهة أخرى، فجاء هذا البحث الأول في أربعة فصول:

الفصل الأول: برجسون حياته وعصره.

الفصل الثاني: برجسون والنظريات المُمهِّدة للتطور.

الفصل الثالث: برجسون وتطور الحياة.

الفصل الرابع: برجسون وتطور الإنسان.

(١) ص ٣٤٧ والنص بجُمَلِه وحروفه منقول من الموسوعة العربية الميسرة ص ٣٤٥، ولم يشر الشيخ إلى المصدر الذي أخذ منه، بل قدم هذه الخلاصة على أنها خلاصته في دراسته لبرجسون، ولا شك أن ذلك عمل غير مقبول في الأطروحات العلمية.

- هذا وقد راعيت عند ترتيب قائمة المراجع - لتسهيل المراجعة لدى القارئ - ما يلي:
- ١- اعتبار أُل التعريف زائدة في أسماء المراجع.
  - ٢- جعلت الاسم المشهور على ألسنة العلماء هو العمدة في ترتيب قائمة المراجع، ثم وضعت الاسم الأصلي بين القوسين.
  - ٣- رتبت قائمة المراجع حسب مكانتها لدى المسلمين فبدأت بكتاب الله، ثم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم المراجع العامة.
  - ٤- أعطيت كتب السنة مكانة متماثلة دون تفضيل إحداها على الأخرى، لقلّة تعاملي معها في ثنايا البحث.
  - ٥- جعلت مراجع البحث مرتبة ترتيبًا هجائيًا ليسهل التعامل بها عند المراجعة.
- ترجمت للأعلام الذين لهم صلة مباشرة بالبحث، واستغنيت عن سواهم، خوف الإطالة من جهة، وحفاظًا على وقت القارئ من جهة أخرى.
- وأخيرًا لا أدعي الكمال فيما قدمت من الجهد، سلّوأيّ أني بذلت الجهد، وحاولت التعرف على الحق، فما كان صوابًا فهو من الله عزوجل، وما كان خطأ فهو مني ومن الشيطان، أسأل الله أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

#### المؤلف

د/ خادم حسين إلهي بخش  
مدرس العقيدة، والمذاهب، والفكر، والأديان  
بقسم الشريعة والدراسات الإسلامية  
جامعة الطائف  
يوم الجمعة ٣٠ من ربيع الأول ١٤٣٠ هـ  
٢٧ مارس ٢٠٠٩ م

## ملف الأول: برجسون حياته و

### عشره

١. ولادته وطفولته.
٢. نشأته العلمية.
٣. عمله.
٤. مكانته بين أقرانه ومناصبه.
٥. مؤلفاته.
٦. أسلوبه في أبحاثه.
٧. وفاته.
٨. عصر برجسون.
٩. مميزات عصر برجسون.

## ١- ولادته وطفولته:

تتفق المصادر التي بحثت عن حياة هنري برجسون أنه وُلِدَ في حي بسكال في باريس بفرنسا في ١٨ أكتوبر ١٩٥٩ من أبوين يهوديين، حَمَل والده الجنسية الفرنسية بالاتفاق. بينما تنسب بعض المصادر جنسية أمه إلي الانجليز، ويقوي هذا التوجه لمكثها الطويل في أيرلندا، وتَلَقَّيها تربية انجليزية (١) ويمكن رؤية هذا الأثر في ولدها هنري، إذ لم يكتب كلمة مشينة تجاه الإنجليز في كل أبحاثه رغم إساءة الانجليز إلى الفرنسيين. وما زال العداء قائماً بين الفرنسيين و الانجليز حتى هذا اليوم، فرغم إجادة الفرنسي للغة الانجليزية يَمُتُّ التحدث بها، ولا يعيرها أي اهتمام في الظاهر. ومثل ذلك تجده في الإنجليزي الذي يجيد التحدث بالفرنسية، يمقت التحدث بها ولا يعطيها أي وزن. فأمه البريطانية هي التي أخضعت له ناصية اللغة الإنجليزية، وأشرفت على تثقيفه بثقافتها فلها الفضل بعد الله عزوجل، فيما عاد عليه من الشهرة العالمية لإتقانه الإنجليزية. ولد برجسون في جو استقر فيه إنكار وجود الله، من الباحثين والمكتشفين لسنن الله في الكون (العلوم الطبيعية)، وذلك لمعاداة الكنيسة للعلم المادي والعلماء المكتشفين للسنن الإلهية، التي يُسَيِّرُ الله بها الكون.

ويعود هذا العداء الذي ورثه برجسون إلى ما قبل ولادته بثلاثة قرون، حين قال كوبر نيكوس(٢) وجردانوبرونو(٣) وجاليليو(٤) بكروية الأرض، فاستنتجهم العلمي هز الكنيسة هزاً، إذا وجدت نتائج ما توصل إليه الثلاثة، يعارض ما تدين به الكنيسة، في ضوء نصوص التوراة التي بين أيديهم، فإنها تقول باستواء الأرض، وإنها مركز الكون، وإن الإنسان مركز الوجود.

## ٢. نشأته العلمية:

تلقى برجسون تعليمه الأوّلي في مدرسة ليسيه كوندرايه، فما أتم تعليمه التأسيسي حتى التحق بمعهد المعلمين العليا، وكانت علامات النبوغ العلمي قد ظهرت على نتائجه التحصيلية، ولاسيما في الرياضيات والعلوم الكونية، فقد فاز بجائزة الرياضيات لمجلة حوليات الرياضة سنة ١٨٧٧م.

ويبدو أن المعهد بطرف خفي وَجَّه برجسون إلى تلقى العلوم الأدبية، رغم ميوله الفطرية إلى الرياضيات والعلوم، لقدرته الفائقة على التحليل وتوجيه المظاهر المختلفة، حتى تنسجم مع

(١) انظر للتفصيل برجسون ، للدكتور زكريا إبراهيم ص ١٧ .

(٢) عالم فلكي بولندي عاش بين عامي ١٤٧٣-١٥٤٣م انظر للتفصيل الموسوعة العربية الميسرة ص ١٤٩٥ .

(٣) فيلسوف ايطالي عاش بين عامي ١٥٤٨ - ١٦٠٠م انظر للتفصيل الموسوعة العربية الميسرة ص ٣٦٣ .

(٤) عالم فلكي ايطالي عاش بين عامي ١٥٦٤ - ١٦٤٢ م انظر للتفصيل الموسوعة العربية الميسرة ص ٥٩٧ .

التوجه العام الذي يُسيّرُ الحياة الأوربية كلها. وجاء تشجيع المعهد لبرجسون بالالتحاق بقسم الآداب عن طريق زملائه المقربين أمثال جان جوريس Jean Jaures وموريس بلوندل M. Blondel واحتفى به أشهر أساتذة الفلسفة في المعهد، مثل أوليه لابرون olle laprune وإميل بوترو E.Botroux.

وهذا ما شجع برجسون على الاطلاع على الآداب القديمة، لاسيما الأدب اليوناني القديم، ولحاجته إلى المال وظّفه المعهد في مكتبته لتنظيم الكتب، وعهد إليه بمنصب أمين المكتبة. ويبدو ممن زار المكتبة في عهده أن الرجل لم يكن مكثرًا بعمله، فقد دخل عليه أحد أساتذته فوجد حوله مئات المجلدات المبعثرة فَلَامَهُ على ذلك قائلاً: (ألا تتألم نفسك كأمين للمكتبة) فأجاب عنه طلاب المعهد قائلين: (وهل لبرجسون نفس حتى تلومه) (١). ويظهر أن هذه الفترة هي فترة المزج عند برجسون بين العلوم الكونية، المبنية على التجارب الحسية الملموسة، والآداب المبنية على التجارب النفسية.

وأعظم من تأثر بهم برجسون في هذا المزج مع تعديل يسير في المنهج، هو هربرت اسبنسر H-Spencer، فقد اقتنعت نفسه بنظرية التطور السبنسرية، وأنها القول الحق الذي لا يجوز تجاوزه، وزاده قناعة بعد اطلاعه على رأي اسينيوزا، وشوبنهاور وبركلي المقتنعين بالتطور (٢).

هذا وقد نال برجسون شهادة معهد المعلمين (اجرجاسيون) عام ١٨٨١م، وأهلته هذه الشهادة إلى أن يدلى بذكوه في القضايا الفلسفية المعاصرة، كقضية الزمان والمكان والاستمرار (الدوام اللانهائي).

### ٣- عمله:

ما أن تخرج برجسون في معهد المعلمين عام ١٨٨١م، حتى عُيّن كأستاذ للفلسفة في بليسيه انجيه (Angers) وبدأت شهرته تتعدى فرنسا، ولئيله الترقية عام ١٨٨٣م نقل إلى بليسيه كليرمون Clermont-Ferrand .

وظل الرجل يرتقى في سلم العلم درجة درجة حتى نال درجة الدكتوراه، من جامعة سوريون عام ١٨٨٩م، وكان عنوان رسالته (رسالة في معطيات الشعور المباشرة) وأضاف إليها رسالة فرعية عنونها ب (فكرة المحل عند أرسطو) بين فيها سقطات أرسطو بأدلة نفسية. وقد عادت عليه الرسلتان بصيت عمّ فرنسا كلها. وبدأت الأنظار تتجه إليه في الأوساط الجامعية، وكان للصحافة الفرنسية الدور الأكبر في إبراز شخصيته، وإعطائها وزناً أكثر مما يستحقه.

لم يحل التدريس بين برجسون وبين مواصلة البحث، فجاءت باكورة إنتاجه باسم (حريتنا البشرية وصلتها بالآلية الكونية) ويعني بذلك: هل البشر مخيرون أو مسيرون في الحياة العاجلة، واتبعها في سنة ١٨٩٧م ببحث أخذ من وقته أكثر من خمس سنوات، ووسّمه باسم (المادة والذاكرة). (٣)

(١) انظر برجسون ص ١٨ .

(٢) وصلت إلى هذه النتيجة من خلال قراءتي لكتب برجسون المتعددة .

(٣) انظر للتفصيل الموسوعة العربية الميسرة ص ٣٤٥ .

وفي سنة ١٨٩٨م نال الترقية الثانية، فُنُقِل إلى مدرسة المعلمين العليا، وتتلذذ عليه أعلام الفلسفة الفرنسيين: مثل هلفاكس Halbwachs، وشارل بلوندل Ch. Blondel، وهنري فالون H. wallon، والبربايه A. Bayet، وظل الرجل في المدرسة مدة سنتين، ثم اختير في سنة ١٩٠٠م كأستاذ للفلسفة القديمة، في كالج دي فرانس Collège de France، أكبر معاهد فرنسا على الإطلاق، وظل في هذا الكرسي مدة أربع سنوات، وما أن مات جبريل تارد Jabriel Tarde أستاذ الفلسفة الحديثة حتى حل برجسون محله.

اكسبه التدريس في الكالج مكانة اجتماعية في جميع طبقات الشعب، فكان يتهافت على محاضراته المثقفون وغير المثقفين، لذيوع صيته في أرجاء المعمورة، وكانت الناس تتدافع بالمناكب للدخول إلى قاعة محاضراته، ولم يكن الكالج يمنع أحدا من الاستماع إليه، بغض النظر عن أنه يدرس عنده أو لا يدرس عنده. وربما أسلوبه الساحر، واستعمال لغة سهلة وضرب الأمثلة الواقعية كانت سبباً لجلب مثل هذا الجمهور، ومن أُلصق تلاميذه الذين لازموا إدوارد ليرو Edouard Le Roy، وجاك شقاليه J. Chevalier، وشارك بيجي Charles Peguy. وأهم الموضوعات التي طرقها في محاضراته في الكالج فكرة الزمان عند القدامى والمحدثين، تطور النظريات المتصلة بالذاكرة والإرادة والحرية، طبيعة الروح، العلاقة بين الفكر والمخ، نظرية التطور، المشكلة الشخصية، تكوين الأفكار العامة...، فكان يعرض الرأي كما هو عند القدامى أو المحدثين، ثم يبدي رأيه فيه إيجاباً أو سلماً نقداً أو تأييداً. فلم يسلم من نقده: أفلاطون وديكارت وبروكلي وسبنسر وغيرهم ممن يشار إليهم بالبنان في العالم.

#### ٤ - مكانته بين أقرانه ومناصبه:

انتخب برجسون سنة ١٩٠١م عضواً بأكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية بالكالج، ثم عضواً بالأكاديمية الفرنسية، مكافأةً لجهوده في خدمة العلم والمجتمع، فذاع صيته وبدأت الطلبات تنهال عليه لإلقاء المحاضرات في دول العالم، ففي ٢٦، ٢٧ مايو ١٩١١م ألقى محاضرتين في جامعة أكسفورد عن إدراك التغيير، و أتبعهما بمحاضرة في مدينة برمنجهام البريطانية في ٢٩ مايو ١٩١١م، تحت عنوان الشعور والحياة، وألقى محاضرة عامة في مؤتمر الفلسفة العالمي ببولونيا سنة ١٩١١م، تحت عنوان الحدث الفلسفي.

وطالبتة جامعة كولومبيا بنيويورك لإلقاء دروس عامة تحت عنوان الحرية والروح، أضف إلى ذلك أن الرجل شارك في الدفاع عن بلده - فرنسا - في الحرب العالمية الأولى، حين لَبَّى دعوة حكومته بالقيام بمهمة رسمية في أسبانيا وأميركا، أملاً في بذل الجهود العالمية في إعادة السلم إلى بلاده أولاً، وإلى العالم ثانياً.

وما أن وضعت الحرب أوزارها سنة ١٩١٨م، وتألقت جمعية الأمم وتكونت لجأها المتعددة، حتى عُرضَ الأمرُ على برجسون في سنة ١٩١٩م ليرأس لجنة التعاون الفكري التابعة لها، فبادر بإجابة الطلب، فأدار جلساتها المتكررة بحنكة وبصيرة، وظل في هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٥م، فأجبرته صحته على التنازل عن رئاسة هذه اللجنة، ولعل جائزة نوبل في الآداب التي نالها سنة ١٩٢٨م أدخلت إليه بعض السلوان، ورفعت عنه كابوس المرض الذي ألزمه الفراش ولو لبعض الوقت (١).

(١) انظر للتفصيل برجسون ص ٢٤ - ٣١ .



## ٥- مؤلفاته:

يجزم الباحثون أن أول مؤلفات برجسون الرئيسية، ظهر على الملأ جاء تحت عنوان (الزمان والإرادة الحرة) وظهر في الأسواق سنة ١٨٨٨ م، وإن كنت لا تُعَدُّم أبحاثاً ومحاضرات مختصرة سبقت هذا المؤلف بزمن غير يسير.

وقد ناقش فيه فكرة الزمان والمكان وصلتهما بدوام الحياة، وكان كتابه هذا توطئة لأطروحة الدكتوراه (رسالة في معطيات الشعور المباشرة)، وفيها حاول الفصل بين الزمان والمكان وإعطاء كل منهما أوصافاً محددة، كثيراً ما خلط الفلاسفة بينهما، واختصت رسالته الفرعية (فكرة المحل عند أرسطو) ببيان سقطاته في تحديد المكان والأوصاف الخاصة به.

وفي الرسائلتين يحاول الرجل حل معضلة المادة الجامدة، ومصارعة الحياة لها بالتححرر، لذا اختار عنوان رسالته الأساسية عند طبعها الانجليزية عنوان (الزمان والحرية).

وظهر كتابه (المادة والذاكرة) سنة ١٨٩٧ م، حاول فيه برجسون الجمع بين حرية العمل الذي يقوم به الإنسان وبين الآلية الكونية التي تسيِّرُ عليه المادة. ولا شك أن كتابه هذا أعقد كتبه على الإطلاق لفظاً وفهماً وتقديمًا للمعلومات، لذا لم ينل من النجاح ما ناله (الزمان والحرية).

ويبدو من كتابه (الضحك) المختص بالهزل والهزاء، أنه جاء كرد فعل لرفض الجمهور أسلوبه المعقد، فقدم كتابه الضحك سنة ١٩٠٤ م، وحل في ظاهره الضحك، وبين أسبابها والعوامل التي تكمن وراء هذا الانفعال، وتقدم إلى الجمهور بما يتناسب مع عقليته، بضرب الأمثلة الواقعية المتداولة آنذاك، من الممثلين والممثلات والمسرحيين والمسرحيات، ويعد كتابه هذا ذات خمس و ثلاثين ومائة صفحة أسهل كتبه على الإطلاق (١).

وظهر كتابه (التطور الخالق) الذي اكسبه المكانة العالمية بين العامة والعلماء سنة ١٩٠٧ م، وحاول فيه حل مشكلة الحياة، وبداية ظهورها، والمراحل التي مرت بها، حتى استقرت على ما هي عليه الآن، ولاقى كلامه في هذا الكتاب صدى في النفوس الممتلئة غيظاً ضد الكنيسة، فنال الشهرة المطلوبة (٢).

ومما زاد في شهرته أن الكنيسة الكاثوليكية: أدرجت كتب برجسون ضمن قائمة الكتب الممنوعة كنسياً، وحرمت قراءة كتاب التطور الخالق، لأنه يقود إلى الإلحاد و إنكار الخلق المباشر من الله عزوجل، وكان ذلك سنة ١٩١٤ م.

وظهر كتابه (معني الحرب) سنة ١٩١٥ م، وذلك عقب نشوب الحرب العالمية الأولى، التي كانت فرنسا أولى ضحاياها، وحاول فيه تحليل ظاهرة الاعتداء والعوامل التي تمكن وراءها، وفيه يُسلِّي نفسه بانتصار القيم والقوى الأخلاقية.

أما كتابه الطاقة الروحية فهو عبارة عن محاضرات ألقاها في العديد من الجمعيات والجامعات، وأبحاث نشرها في العديد من الدوريات، وندوات شارك فيها بمقال تحت عنوان معين.

ويبدو من تصدير الكتاب بمحاضرة هُوكسلي التي ألقاها في جامعة برمنجهام، في ٢٩ مايو ١٩١١ م ولقاءه التام لمنهج ذلك العصر، الذي جزم بأن الله لم يخلق الخلق بجميع فئاته، وإنما جاء

(١) وقد قرأته من ألفه إلى يائه .  
(٢) وقد قرأته من ألفه إلى يائه .

الخلق عن طريق التطور، في فترات متلاحقة امتدت إلى ملايين السنين (١). وجاء كتابه (الديمومة والتأني سنة ١٩٢٢م، كعرض ومناقشة لنظرية اينشتاين للزمان ودوامه النسبي المنتهى إلى أمد محدد، وعارضه برجسون في انتهاء الزمان ونهايته في ضوء نظريته في الزمان، وأنه غير منتهٍ ولا نهاية له.

وأما كتابه (الفكر والمتحرك) الذي ظهر سنة ١٩٣٤م، فهو كتاب مُحَدِّدٌ لمنهج برجسون في كل ما كتب، إذ عَرَضَ فيه التطور الذي ارتضاه لنفسه، وقواعد المنهج الحَدَسِي الذي وضع أسسه، كما حوى كتابه هذا بحثه الموسوم (المدخل إلى ميتافيزيقيا) الذي حاول فيه إقناع القارئ بفكره، من أن التجربة ونتائجها لا ينحصران في العلوم التجريبية، وإنما يوجدان أيضا في العلوم التي لا تدخل المعمل (٢).

وجاء ختام كتبه (منبعا الأخلاق والدين) الذي ظهر على الملأ سنة ١٩٣٢م، ليضع ختم الاعتماد على المنهج الذي سعى برجسون إلى بثه بين الناس، بغُلْبِ مختلفة الألوان والأذواق. إلا أنها جميعا تهدف إلى شيءٍ واحدٍ وهو الذي تراه في أبحاثي الثلاثة.

## ٦- أسلوبه في أبحاثه

يعد العلماء هنري برجسون من المكثرين في الكتابة، يملك خيالاً خصباً وقدرة على التحليل قَلَّ ما أعطى غيره مثلها، فبحثه عن (المادة والذاكرة) خير مثال على ذلك، يتمتع الرجل بسعة الاطلاع على الحضارات القديمة، كالحضارة الهندوسية والفرعونية والبوذية والكنفوشية... ويمتاز فكره بأمر أهمها:

أ- كثرة التكرار، و لربما كثر المعنى الواحد في الصفحة الواحدة ، ولا شك أن ذلك غير محمود في الأبحاث والمقالات العلمية. لأن ذلك يقود القارئ إلى الملل وقطع المشوار في منتصف الطريق، دون الوصول إلى الهدف المنشود.

ب- المفروض في الباحث أن يقدم المعلومة إلى القارئ في صيغة الجزم دون تردد، إلا أن ذلك شبه مفقود في أبحاث برجسون، يقدم القَرَضَ ثم يَنْقُده، ويتبعه بفرضٍ آخر ثم ينقده، وهكذا دواليك، حتى يأتي إلى ذِكْرِ الفرض الأخير ويتركه دون أن يبين رأيه فيه سلْباً أو إيجاباً، لذلك لا يخرج القارئ بنتيجة حتمية لرأي برجسون، ومن هنا نجد الباحثين عند تحديد رأي برجسون يقدمون الفرض الأخير غير المنقوض، وينسبون إليه، ويجزمون بأنه رأيه.

ت- يحترم برجسون الرأي المخالف ويلتزم الأدب عند النقد، وما رأيت له جملة جرح بها شعور غيره، ونقده في الأعم الأغلب للبناء وإتمام نظريته لا للنقد فحسب، لذلك نال إعجاب أعدائه قبل أصدقائه، وأطروحته للدكتوراه خير شاهد على ما أقول: فقد نقد أرسطو، إلا أن نقده نقد متمم للقضايا التي تطرق إليها برجسون في النقد.

ث- أسلوبه في القضايا الفلسفية اليونانية غامض غموض اليونان، لا يستطيع القارئ العادي أن ينال منه بغيته، وما كتبه في قضايا علم النفس أيسر منالاً، يستطيع القارئ نيل المطلوب بجهد يسير، أما ما كتبه عن القضايا الغيبية وأمور الدين والأخلاق فإن

(١) قد قرأت كتابه هذا كاملاً ، واستشهدت به في مواضع من البحث .  
(٢) رغم عرضه لهذا المنهج لم يرتضه تجاه وجود الله كما سيأتي في بحث منبع الدين ، ومنه وجود الله .

الوضوح ميزته، وإقناع القارئ بضرب الأمثلة واضح فيها وضوح حرارة الشمس، لكل من يملك خلايا الإحساس بالحرارة.

ج- لم يرفع برجسون قلمه للكتابة في موضوع، إلا بعد أن اطلع على كل جزئية من جزئياته المتاحة، ربما استغرق منه ذلك عقدا من عمره، لذلك تجده يتحدث في العمق والأساسيات، فما أخرج كتابه التطور الخالق إلا بعد دراسته للأبحاث المتداولة في زمنه، ولاسيما في علم الأحياء، فجاء نقده في العمق والجزئيات لا في العموميات والمظهر الخارجي، لذا لا أعدو الحق إن قلت أن كتب برجسون كلها للعلماء وأهل التخصص، ما عدا كتابه منبعا للأخلاق والدين.

## ٧- وفاته

عَمَّرَ برجسون طويلاً، فقد لَبَّى داعي الأجل في ٤ يناير سنة ١٩٤١م، وكان عمره آنذاك إحدى وثمانين سنة، وتختلف الرواية في الديانة التي مات عليها، فمن قائل بموته على الإلحاد ونكران الإله، وقائل بموته على النصرانية الكاثوليكية.

ويستند القائلون على موته نصرانياً بأمور منها:

١- كتبت الصحفية ريشا مارتين بعد وفاته بثلاثة أيام تُوْبِنُه مخبرة: إن برجسون قد نَعَمَّدَ، واغتسل غُسل المعمودية، وان الخبر ظل في طي الكتمان حتى هذا اليوم، دون أن تحدد يوم تعميده ومَن القسيس الذي عمده.<sup>(١)</sup>

٢- نشرت زوج برجسون وصية زوجها المحررة في فبراير ١٩٣٧م، يعلن فيها انضمامه الأدبي إلى الكاثوليكية، ويَعُدُّهَا الصورة المكتملة لليهودية السامية.

٣- طلب برجسون في وصيته السابقة: أن نستقدم أسرته عند موته قسيساً كاثوليكياً للصلاة على جثمانه (2).

ويعتمد القائلون بموته على الإلحاد بأمور منها:

١- نجد في الوصية السابقة أن الرجل أعلن انضمامه الأدبي إلى الديانة الكاثوليكية إلا أنه نص على (عدم رغبته في تحقيق الخطوة النهائية للانضمام إلى الكنيسة وتَقَبُّلِ طقس التعميد)

٢- علل برجسون في وصيته عدم قبول التعميد قائلاً: (حتى لا يتخلى عن أولئك الذين سيقع عليهم العذاب والاضطهاد من بني جنسه)<sup>(٣)</sup>

إنن لن يتخلى عنهم عند موته، وهذا ما حصل، فلم نر ما يناقض هذا الاعتماد الكتابي الموثوق.

كل ذلك حق وثابت، إلا أنه عند النظر إلى دراسة ظروف المرض، التي لازمت برجسون مدة طويلة، والعمر المديد الذي تجاوز ثمانية عقود، ووَهْن القوى البشرية في مثل هذا العمر، وتخلي الأسرة من الأبناء والبنات عن المعمرين في المجتمع الغربي المادي، وإحالتهم إلى دُور العجزة والمسنين، وحاجة المسن إلى المواساة والسلوان، ووجود الحظ الأوفر منهما في الدين ،

(١) انظر Raissa Maritain: Henri Bergson Souvenirs, in Bergson Neuchatal, 1943,p356

(٢) انظر برجسون ص ٣٠ .

(٣) CF. La Gazette de Lausanne du 29 Septembar 1941 Une lettre de M me Henri Bergson

ويقين المعمر بموعد الرحيل العاجل، وطلب برجسون نفسه استدعاء قسيس يصلي على جثمانه.....

كل ذي يقودني إلى موته على الديانة النصرانية الكاثوليكية، رغم سعيه الحثيث في العقود الستة من عمره على نشر الإلحاد، خدمة لبني جلدته من اليهود وبني صهيون.

#### ٨- عصر برجسون

يُعدُّ العصر الذي عاش فيه برجسون، نهاية الصراع بين العلوم التجريبية والعلوم المنزلة من عند الله عز وجل، في الكتب الإلهية الممثلة في الكنيسة ورجالها في الغرب، ويعود امتداد هذا الصراع إلى القرن السادس عشر الميلادي وما بعده، حين قال كوبرنيكوس و جردانوبرونو وجاليليو بكروية الأرض ونفوا أن تكون مركزاً للكون.

واستنتاجهم العلمي هز الكنيسة وما تدين به هزاً، إذ وجدت أن ما توصل إليه الثلاثة يناقض ما تدين به الكنيسة، لأن التوراة - التي يجب على رجال الكنيسة الإيمان بها قبل إيمانهم بالأنجيل - تقول: إن الأرض مستوية أي مسطحة، وأنها مركز الكون، وأن الإنسان مركز الوجود. فخافت الكنيسة أن تُفقد سلطانها إن صدقت العلماء، فأخذت في مطاردتهم ومطاردة كل من يحاول المساس بما تدين به الكنيسة، فقد كان العلماء يعارضون الكنيسة وديانتها، بنتائجهم المادية العملية، واشتد الصراع بينها وبين العلماء التجريبيين، حين ادعى دارون<sup>(١)</sup> بوجود المخلوقات عن طريق التطور، وأن الله لم يخلق شيئاً و(إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق) و(إن تفسير الحياة وتطورها بإرجاعها للإرادة الإلهية، يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحث)<sup>(٢)</sup>.

ففي بداية الصراع تعاطف الناس مع الكنيسة، وعارضوا نتائج العلم، إلا أن هذا التعاطف لم يكن مبنياً على أسس دينية سليمة، لذا أخذ الناس بالتخلي عنه، والتحول إلى العلم والعلماء، وبالتدريج أخذت كفة الكنيسة تخف، وكفة العلم التجريبي تترجح، لأن ما تقدمه الكنيسة من المعلومات يتعارض مع واقع الحياة، فعصر برجسون هو عصر النزعات الأخيرة من حياة الكنيسة وديانتها.

ولم تعد الكنيسة تملك من توجيه الناس شيئاً، سوى أن تطردهم من رضوان البابا، وضم الكتب التي تخالفها إلى قائمة الكتب الممنوعة، التي يحرم قراءتها.

#### ٩- مميزات عصر برجسون

يمكن حصر مميزات هذا العصر فيما يلي:

- ١- حصر العلم والمعرفة في التجربة والمعمل الماديين.
- ٢- إنكار المعلومات التي لا تدخل في أنبوب المعمل.
- ٣- فصل الدين عن الحياة، وانتشار العلمانية بين جميع طبقات الشعب، وفقدان الكنيسة مصدرية التوجيه لممارسة أعمال الحياة اليومية.
- ٤- حصر الأعمال لرجال الكنيسة في إقامة طقوس يوم الأحد.
- ٥- إنكار المعتقدات الغيبية بجميع صورها وأشكالها، بدءاً من وجود الله عز وجل و انتهاءً

(١) عالم بيولوجي عاش بين عامي ١٨٠٩ - ١٨٨٢ م . أنظر للتفصيل الموسوعة العربية الميسرة ص ٧٧٤ .

(٢) مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب ص ٩٤ - ٩٥ .

- بوجود يوم العرض والحساب والجنة والنار، ومن يثبتها منهم يحاول إثباتها في هذا الحياة العاجلة، في صور يمكن قبولها عقلاً.
- ٦- تقديم آراء ومقترحات سخيفة قد تصل إلى الخيال، تحت شعار العلم التجريبي، الذي سيتطور لاحقاً، فيصِل إلى تلك الغاية المُتَخَيَّلَة المنشودة، كتطور حياة الإنسان لتصبح دائمة خالدة، فينتفي الموت إلى الأبد، كما سيأتي في قول برجسون.
- ٧- استسلام الكنيسة وقبول الانهزام العام، أمام العلم المادي ومن يرتدى رداءه.
- ٨- توجيه المراكز العلمية والعلماء البارزين من قبل اليهودية العالمية، التي تتبنى خطة نزع فكرة الله من عقول غير اليهود، تحقيقاً للمبدأ الذي نصت عليه في بروتوكولات حكماء صهيون (لو أن الحرية كانت مؤسسة على العقيدة وخشية الله وعلى الأخوة والإنسانية....، إن الناس المحكومين بمثل هذا الإيمان، سيكونون موضوعين تحت حماية كنائسهم (هيئاتهم الدينية) وسيعيشون في هدوء واطمئنان وثقة، تحت إرشاد أئمتهم الروحيين، وسيخضعون لمشيئة الله على الأرض، وهذا هو السبب الذي يحتم علينا أن ننزع فكرة الله ذاتها من عقول المسيحيين، وأن نضع مكانها عمليات حسابية وضرورات مادية) (١).
- ٩- إنشاء نظريات باسم العلم تناقض الموروث الكنسي، بغض النظر عن الصحة أو الفساد، وتُحل محله، لسد الفراغ الذي أحدثه النقض، تقول بروتوكولات حكماء صهيون (لاحظوا هنا أن نجاح دارون وماركس ونيتشة قد رتبناه من قبل، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (غير اليهودي) سيكون واضحاً لنا على التأكيد) (٢).
- ١٠- كانت الصحافة هي التي تمسك أزمة التوجيه والإرشاد، بعد أن سلبته من الكنيسة ورجالها، من الرهبان والقساوسة، وقد تمكن اليهود من الوصول إلى كرسي رئاستها، بالتأسيس للصحف الجديدة حيناً، وبشراء المشتهر منها أحياناً أخرى، وما تزال كذلك حتى هذا اليوم، وازداد الوضع سوءاً بتعدد وسائل الإعلام: من الراديو والشريط والقنوات الفضائية والانترنت، وكلها مملوكة لليهودية العالمية، بطريق مباشر أو غير مباشر.
- ١١- تقديم الاستدلال التجريبي على سائر الأدلة، وإقناع الناس بأن حكمه هو الصواب، وأن كل دليل لا يقوم على التجربة فهو دليل باطل، لا يجوز قبوله ولا الركون إليه.

(١) الخطر اليهود بروتوكولات حكماء صهيون، ص ١٢٠ ترجمة محمد خليفة التونسي .  
(٢) المصدر السابق ص : ١١٢ .

## الفصل الثاني: برجسون والنظريات المُمهّدة للتطور

ممهّدات التطور.

١- نظرية نبذ المعرفة الميتافيزيقية.

٢- نظرية المعرفة الحدسية.

٣- نظرية دوام الحياة.

### ممهّدات التطور.

يجزم الباحثون جميعاً، أن برجسون لم ينل شهرته العالمية إلا بعد أن نشر كتابه التطور الخالق، الذي يُعدُّ آخر الدعائم التي وَضَعَتْ ختم التوثيق على نظرية التطور الداروينية، مع بعض الاختلاف في المراحل التي مرت بها الحياة، حتى وصلت إلى الإنسان واستقرت فيه. فلم يكن برجسون بدعاً في باب الفكر الفلسفي، فقد عرض القضايا التي عرضها الفلاسفة قبله وسيعرضها من يأتي بعده، وأعظم هذه القضايا قضية أصل الحياة، وكيف وُجِدَتْ، ومن موجدتها الحقيقي، وما صلّتها بالمادة الجامدة، وما مكانة العمل الإنساني فيها، وهل الإنسان مجبور على الأداء أو مخير بين الرفض والامتثال. حاول برجسون أن يحل معضلة أصل الحياة، ومنبعها الأساسي، بتقديم نظريات ممهّدة تقود إلى نظرية التطور الكاشفة في نظره عن أصل الحياة، ومن أهم هذه الممهّدات:

#### ١ - نظرية نبذ المعرفة الميتافيزيقية

المعرفة الميتافيزيقية هي الوصول إلى كنه الأشياء وحقيقتها، من غير إدخال المعلومة في أنبوب المعمل، ولا شك أن هذا التعريف ينطبق على علوم الغيب المنزلة من عند الله أساساً، ويدخل غيرها فيه، مما يقدم المعرفة كالفراسة والإحساس الداخلي، والشعور وما شابه ذلك. يرفض برجسون العلوم المكتسبة عن طريق الميتافيزيقيا العقيدية (الغيب)، حتى وإن كانت تلك العلوم معتقدات، توارثتها البشرية كابراً عن كابر، أو أحكاماً عملية يختلف أدائها من شخص إلى آخر ومن شعب إلى آخر. كل ذلك مرفوض عند الرجل، فبحثه (المدخل إلى ميتافيزيقيا) يدور حول هذا المحور.

أعظم ما في علوم الغيب هو المعتقدات، وتعد بمثابة الأساس للأحكام العلمية، ويجزم برجسون أنها من صنع الفلاسفة، لا دخل للوحي فيها، وإنهم هم المقدمون لها إلى العلماء المؤمنين بالغيب، (إن العقيدة التي تقدمها لنا نحن نعرفها، إنها خارجة من معملنا نحن الفلاسفة، الذين صنعناها، وإنها لبضاعة قديمة جداً).<sup>(١)</sup>

ويبرر برجسون مسلك العالم الميتافيزيقي القديم المؤمن بالغيب، بأنه قدم عقيدته إلى العالم التجريبي وعمامة الناس، وقبلهما الصنفان دون تردد، لأنها تسد فراغاً داخل نفسه، وأما العالم الفلسفي فلا يستطيع قبولها، لأنه قادر على تقديم عقيدة مَرْنَةٍ تستطيع القَوْلْبَةَ مع واقع الحياة.<sup>(٢)</sup> ويدعو الرجل إلى تعديل العقيدة، بناء على الرصد والمراقبة الداخليتين في النفس البشرية، ويتفاعل بتقدم مثل هذا المنهج على المنهج التجريبي القائم في المعامل، (إن ذكرنا الواقعة فليس للتباهي بها، بل للتدليل على أن الرصد الداخلي قد يعلو، ويتقدم على المناهج التي يعتقد أنها أكثر فاعلية، أثبتنا أن العقيدة التي كانت يومئذ تعتبر مقدسة، تحتاج على الأقل إلى التعديل).<sup>(٣)</sup> ويسلك برجسون طريق الفرار في المحاضرة التي ألقاها تحت عنوان (الروح والجسد) فطرح

(١) الطاقة الروحية، ص ٤٠ ترجمة الدكتور علي مقلد وكتبها برجسون تحت عنوان الروح والجسد ونشرت في كتاب المادية المعاصرة تحت إشراف الدكتور غوستاف لوبون .  
(٢) انظر الطاقة الروحية، ص ٣٨ ترجمة الدكتور علي مقلد.  
(٣) الطاقة الروحية، ص ٤٨ ، ٤٩ ترجمة د/ علي مقلد .

تساؤلات الفطرة الرئيسية على الحضور، وتتكب الإجابة قائلاً (فأقول من أين جئنا؟ وماذا نفعل؟ وإلى أين نحن سائرون؟ وإذا كانت الفلسفة ليس لديها ما تجيبه على هذه الأسئلة ذات الاهتمام الحيوي، أو إذا كانت عاجزة عن توضيحها بصورة تدريجية، كما توضح مسألة من المسائل البيولوجية (علم الحياة) أو التاريخ، وإذا كانت لا تستطيع تفسيرها بواسطة تجربة يزداد عمقها، وبنظرة أكثر فأكثر دقة فيما خص الواقع، وإذا كانت ستكتفي بتأجيج الصراع بين الذين يؤكدون والذين ينفون الخلود، بواسطة براهين مستقاة من الجوهر الفرضي للنفس، أو الجسد) (١)

اعتقد أنك أدركت معي في ضوء النص السابق، أن الرجل مكلف بمهمة يؤديها، فإذا لم يستطع الوفاء بها، يكتفي بزرع الشك تجاه نقد المعتقدات البشرية.

يرفض الرجل الاعتراف باليوم الآخر وما يعقبه من الحساب والجزاء والجنة والنار والبقاء الأبدي، الذي لا نهاية له، وانتفاء الموت إلى الأبد، كل ذلك مرفوض عند برجسون لأن العقل لا يسند ذلك، والعلم التجريبي لا يعترف به. (٢)

ويلزم الرجل معتقد المؤمن في الجنة، وما أعده الله لعباده من النعيم المثالي، إذ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وإن أهلها يعودون شباباً فلا يهرمون، فيها زوجات من الحوار العين كأمثال اللؤلؤ المكنون...، وإن فيها أنهاراً من عسل وأنهاراً من لبن مصفى، وإن قصورها تجري من تحتها الأنهار (إننا نحيب في الفرضية المثالية: إنه من المستحيل تصور شيء ما في حال انعدام هذا الشيء بصورة كاملة) (٣)

لم تسلم عقيدة فِرَاسَة المؤمن «اتقوا فِرَاسَة المؤمن فإنه ينظر بنور الله...» (٤)، والاستخارة وما شابهها من الحالات، التي تستكشف بعض الأمور الغيبية بأمر الله، من نقد برجسون فقد كتب تحت عنوان (التعرف الخاطئ) قائلاً: (هكذا تكون إذا اضطرابات الإرادة، التي تتسبب بالتعرف (في التعرف) الخاطئ، بل إنها تشكل سببه الأساسي، أما السبب القريب فيجب البحث عنه في مكان آخر، في التداخل المترابط بين الإرادة والذاكرة، إن التعرف الخاطئ ينتج بشكل طبيعي عن عمل هاتين الطاقتين، إذا تُركتا لقواهما الذاتية، ويحدث التعرف الخاطئ في كل لحظة إذا لم تمنع الإرادية النَّزَاعَة دائماً إلى العمل) (٥)

### مناقشة نبذ المعرفة الميتافيزيقية

يتفق البشر جميعاً منذ وجود أول إنسان على وجه الأرض إلى هذا اليوم، بمختلف دياناتهم، أن الإنسان بعمومه يكتسب المعرفة عن طريقين: طريق التجربة وطريق الوحي.

### الطريق الأول: (طريق التجربة)

لا يمتنع الإنسان عن قبول ما يقدمه البشر من المعرفة عن طريق التجربة، وما يستنتجه الناس من معترك الحياة خلال مسيرة الإنسانية، ولا يختلف اثنان أن هذا الرافد يقدم المعرفة إلى البشر، وأن البشر يتقبلون هذه المعرفة دون نزاع، وقد قطعت البشرية شوطاً عظيماً خلال ثلاث مائة سنة الماضية في هذا المضمار، في شتى ميادين الحياة، وبسَّرت للإنسان طرق معيشتها، أسهل من ذي قبل، كما قدمت إليه هدمه وفناءه بأيسر السبل وأسهل الوسائل.

(١) الطاقة الروحية، ص ٥٥ ترجمة د/ علي مقلد.

(٢) انظر الطاقة الروحية محاضرة الروح والجسد، ص ٥٥ - ٥٦ ترجمة د/ علي مقلد، و ص ١٧٦.

(٣) الطاقة الروحية، ص ١٨١ ترجمة د/ علي مقلد.

(٤) رواه الترمذي، جامع الترمذي المتن ص ٧٠٦ كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الحجر.

(٥) الطاقة الروحية، ص ١٤٠ ترجمة د/ علي مقلد.



فمن الأولى الثلجة والغسالة والسيارة والطائرة والكهرباء...، ومن الثانية قنابل النابالم والمتفجرات والقنابل الذرية وقنابل الصوت...، وقد أقر الإسلام اكتساب المعرفة عن هذا الجانب، وحث عليه، فيما يخدم البشرية فمن أبرز أدلته.

١- قدم رسول الله المدينة وأهلها يؤيرون النخل، فقال عليه الصلاة والسلام مستفهما (لو لم تفعلوا لصلح) وفهم الأنصار رضي الله عنهم من الاستفهام الامتناع و النهي، فتركوا التآبير، فجاء التمر شبيصا لا نواة فيه، وقُدِّم شيء من ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مستغربا (ما لنخلكم؟) فبينوا له السبب، وإنهم فهموا من قوله النهي، فقال عليه الصلاة والسلام حاتًّا على التعامل بما اكتسبوه من التجربة «أنتم أعلم بأمر دنياكم» (١).

٢- خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر، يعترض عيرا لقريش، واستطاعت العير النفاذ بأخذ طريق الساحل دون اعتراض، وخرجت قريش لمحاربة المسلمين، وقد نزل رسول الهدي صلى الله عليه وسلم عند أول ماء في بدر يلي المدينة فأشار عليه الحباب بن المنذر رضي الله عنه بالنزول عند آخر ماء في بدر وأن يغوروا ألابار التي خلفهم، نشرب ولا يشربون، خطة مبنية على تجارب الحروب، وقد امتثل لها عليه الصلاة والسلام (٢).

٣- في غزوة الخندق حين أحاطت الأحزاب المعادية بالمدينة، أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على رسوله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق، وأن الفرس يتعاملون بمثل ذلك متى أحيط بمدنهم، فتبنى التجربة خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم وأمر بحفر الخندق شمال غرب المدينة، وحفر مع أصحابه، فأخذ بتجربة الفرس وتبناها دون تردد (٣).

٤- جاء الأمر العام بالحث على استخراج المفيد من الأرض عن طريق التجارب وتقديمه إلى البشر وغيرهم من مخلوقات الله فقد صح من قوله صلى الله عليه وسلم (ما من مسلم يغرّس غرسا، أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة) (٤) يتضح مما سبق أن الإسلام يحض على إجراء التجارب، وتبنى المعرفة المكتسبة عن طريقها، وقد خاضها عليه الصلاة والسلام قولًا وعملا، وأمر بالأخذ بها.

### الطريق الثاني (طريق الوحي)

وهو إعلام الله رسوله بما فيه مصلحة البشر، فيبلغه الرسول إلى البشر، ويسمى ذلك أمر الله وشرعه، ويشمل جانبين: من الحياة: المعتقدات، والأحكام العملية.

وهذا الرافد المعرفي أدق وأحصن في تقديم المعلومات إلى البشر، لأن مخبره هو الله عزوجل، ولأن المعرفة القادمة من هذا الجانب تأتي ممن خلق الكون ومظاهر الحياة المختلفة، وهو أعلم بما فيها من النافع والضار، لأكرم مخلوق خلقه بيده، وأسجد له ملائكته ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ \* فَأِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ \* فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ \* إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ \* قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ \* قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ

(١) رواه مسلم كتاب الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله ص ١٠٣٩ .  
 (٢) انظر تفصيل ذلك في روضة الأنوار في سيرة النبي المختار لصفى الرحمن ص ١١٣ .  
 (٣) انظر للتفصيل المصدر السابق ص ١٣٨ .  
 (٤) رواه البخاري فتح الباري كتاب الحرث والمزارعة ، باب فضل الزرع ، ج ٥ ص ٣

(١).٤

فالمعرفة القادمة من هذا الجانب، تلقتها البشرية منذ وجود أول إنسان على وجه الأرض (آدم) ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \*قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(١)</sup>

وختم بأخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وجاءت المعرفة عن طريقه في صورة أسس وقواعد عامة، حلت معضلات الحياة الماضية، وتحل المعضلات المعاصرة، وستحل ما يطرأ من معضلات في الحياة المستقبلية، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾<sup>(٢)</sup> وتلقى المعرفة عن هذا الطريق لا يختص بالإسلام والمسلمين، بل أنه رافد مشترك بين جميع الديانات الإلهية.

فها هي التوراة السامرية تقدم المعلومات في أول أسفارها سفر التكوين عن بداية الخلق فنقول:

١- (البداية خلق الله السماوات والأرض، والأرض كانت مغمورة مستبحرة، ورياح الله هابة على وجه الماء، وقال الله يكون نورا فكان نورا، ونظر الله النور، وأفصل بين النور وبين الظلام، وسمى الله النور نهارا، والظلام سُمي ليلا، وكان ليلا وكان نهارا يوما واحدا).<sup>(٣)</sup>

٢- وتقدم التوراة العبرية التي يعترف بها كل اليهود، معلومات عن تكون السماء والأرض قائلة (وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة، وكان كذلك، ودعا الله اليابسة أرضا، ومجتمع المياه دعاه بحارا).<sup>(٤)</sup>

٣- ويقدم إنجيل لوقا حمل مريم بعبسى عليه السلام، وسلام الملك جبريل عليها، وإخبارها أن الرب أنعم عليها (وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل، اسمها ناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف، واسم العذراء مريم، فدخل إليها الملاك وقال سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك، مبارك أنت في النساء)<sup>(٥)</sup>

يتضح من النصوص السابقة، أن البشرية تبنت أخذ المعرفة من الوحي، وما يخبر الله به رسله ويُشترط في أخذ المعرفة عن هذا الجانب، صحة نسبته إلى الله عز وجل، فمتى صحت النسبة وجب على الجوارح الامتثال.

## ٢- نظرية المعرفة الحدسية

بعد أن رفض برجسون كسب المعارف عن طريق الوحي، قدم بديلا لذلك يحل محله، وذلك هو مسلك اليهود المعهود لنشر الإلحاد في الأرض، فبعد هدم الموروث لا بد من تقديم البديل، فجاء في صورة نظريات تحل محله، لأن البشرية تطلب سندا كما تقوم به من أعمال، فلا بد من وجود بديل بشري يستند إليه هذا الموروث القائم بينهم، فقدم لذلك نظرية استنباط المعارف وتحصيلها من الشعور الباطن، وأن قلة من الناس يستطيعون أخذ المعارف من هذا الرافد، وأن

(١) سورة ص آية ٧١-٧٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ٣١، ٣٢.

(٣) سورة المائدة، آية ٣.

(٤) التوراة السامرية سفر التكوين الإصحاح الأول ص ٣٥ ترجمة الكاهن السامري: أبو الحسن إسحاق الصوري.

(٥) سفر التكوين الإصحاح الأول فقرة ٩، ١٠.

(٦) كتاب العهد الجديد لربنا ومخلصنا يسوع المسيح إنجيل لوقا الإصحاح الأول فقرة ٣٦ - ٣٩، ص ٩٠ ضمن مجلد الكتاب المقدس.

هذا العلم في بداية نموه، وسيطور إلى حد يستطيع حل كل قضية لا يستطيع العلم التجريبي حلها، وأطلق على كل ذلك مصطلح (المعرفة الحدسية).

ويصف الحدس بأنه التجربة الشعورية، داخل النفس الإنسانية، التي يحملها الإنسان، وهو التواجد في الشيء ذاته، بمجهود غير معلمي، قوامه الاستدلال الذي يستخدم العناصر غير المادية، يحاول الاقتراب من الأصل عن كثب، وذلك بسبر أغوار الحياة وجس نبضات النفس، بضرب من الكشف الروحي.<sup>(١)</sup>

وتفتقر المعرفة الحاصلة من المعامل التجريبية عند برجسون، عن المعرفة الحاصلة عن الحدس، بأن الأولى تتميز بالثبات وعدم التغير، بينما الثانية تمتاز بالتغير الدائم وعدم الثبات، لذلك لا يمكن الإمساك بها، و يصعب الحصول عليها بسهولة، بالعلوم المتاحة إمامنا الآن.<sup>(٢)</sup>

### مناقشة نظرية المعرفة الحدسية:

ما قاله برجسون عن تلقى المعرفة عن الحدس والشعور الباطن يعترضه أمور أهمها:

١- إن هذه المعرفة غير عامة، لا يحصل عليها كل البشر، فلا يشتركون جميعا في تحصيلها، رغم تساويهم في الوجوه التي تنبع منها في الظاهر، فإن كان برجسون يستطيع نيلها، فإن الملايين من أمثاله من البشر غير قادرين على تحصيلها، وما الذي يمنعني ويمنع عامة أفراد البشر من القول بأن ما قاله برجسون وَهُمَّ لا محل له من الواقع.

٢- لا تتساوى الناس في التجربة الشعورية، فربما تجربتي اختلفت عن تجربة زيد، ممن أمكنه حوض المعترك الحدسي، ولعل تصوف الهندوس والنصارى والمسلمين خير شاهد على هذا الاختلاف، فالتجربة الشعورية عند الهندوسي غير التجربة الشعورية عند النصراني، وتجربة الأخير غير تجربة المسلم.

فربما لا تجد أحدا وافق برجسون في المعلومات المكتسبة عن طريق الحدس، بما في ذلك أقرب تلاميذه إليه، لذا لا تجد اتفاقا يوحد بينهم فيما قاله برجسون، دعك عن الاتفاق في عمق المعلومات ودقتها، بل خذ الظاهر والواضح تجد التنافر الذي يشتت بينهم، فمثلاً: هل الله هو الحياة أو الحياة غير الله؟ ظل موضع جدال طوال حياتهم.

٣- يعترف برجسون بأن المعرفة الحدسية دائمة التغير، وأن الثبات ليس من صفاتها، فيما أن الأمر تغير مستمر، فهل يمكن أن يشترك اثنان في إدراك التغير في لحظة واحدة، فضلاً عن أن يشترك معهم ممن يماثلهم في طلب هذه المعرفة.

٤- ما قاله برجسون عن المعرفة الحدسية يتفق تماما مع المنهج المعتاد الذي خطه اليهود لعلمائهم، قوامه هدم الموروث، وإقناع الناس بأنه زال عن الوجود إتباعا لسنة التطور، والتغيير حتى لا ينتبه الناس إلى الهادمين فيعاقبونهم، بما ارتكبت أيديهم من الجرائم تجاه البشرية، وبذلك تضيع معالم الجريمة.

لم يختلف قول برجسون في المعرفة الحدسية، عما قاله أميل دور كايم عن نظريته في العقل الجمعي - فإنه شيء خارج عقول الأفراد وليس هو مجموع عقولهم ولا يشترط أن

(١) انظر المدخل إلى ميتافيزيقيا لهنري برجسون، ص ٢٤٧، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٢ ترجمة الدكتور محمد علي أبو ريان .  
(٢) انظر المصدر السابق ص ٢٦٥.

يكون موافقا لعقل أحد منهم - حتى يسلم من العقوبة والمقاضاة، فالمعرفة الحدسية لا يمكن الإمساك بها، كما أن العقل الجمعي وما يقوم به من الهدم والتخريب لا يمكن الإمساك به، فكلاهما يقدم الهدم دون أن تستطيع الناس الإمساك بالمجرم.

٥- يبدو - والله أعلم - أن الرجل قدم نظرية المعرفة الحدسية، ليسد الفراغ الذي أحدثه بإنكار المعرفة الميتافيزيقية، (الغيب) فلا بد من سداد تلك الخانة الفارغة، التي أحدثها إنكار المعرفة الغيبية، لأن النفس الإنسانية تطلب ملاءها، ولا تسمح بتركها فارغة دون امتلاء.

### ٣- نظرية دوام الحياة.

جزم برجسون في أطروحة الدكتوراه أن الإنسان يتركب من جسد خارجي ونفس (روح) تسكن داخل هذا المغلف، وأن النفس هي التي تحرك الإنسان بجسده الخارجي، فيقوم بأعمال الحياة المختلفة، وأنها لا تفني ولا تبديد، ويعطيها أسماء مختلفة ك (ذات) و(أنا الداخلية) و (الحدس) و(الشعور) و(النفس)....

ويصفها بصفات الصيرورة والتغير، والحرية، والخلق المستمر، ودوام الحياة، وأنها لا تكف عن التدفق والسيلان، (فالحياة النفسية تيار غير منقطع من التغيرات لا تقبل التجزئة وسيل متدفق من الحركات لا تقبل القسمة، وفي وسعنا أن نقول إن ديمومتنا لا تحتل الرجعة إلى الماضي، أو تكرر ظروف بعينها، بل حياة جديدة مستمرة بلا انقطاع ، وإبداع صور لم تكن موجودة من قبل) (١)

وتصل الديمومة في نظر برجسون إلى التغلب على كل العوائق، وكل ضروب المقاومة، بما في ذلك الموت (ومن يدري فربما تستطيع الإنسانية يوما أن تتغلب على شتى العوائق، حتى الموت نفسه) (٢)

ويجزم بانفكاك حياة الفكر عن حياة الجسد فيقول: (إن حياة الفكر لا يمكن أن تكون نتيجة لحياة الجسد، بل إن كل الأمور تجري كما لو لم يكن الجسد إلا أداة يستخدمها الفكر، وإذا كان الأمر كذلك فليس هناك ما يدعو إلى افتراض، أن الجسم والروح مرتبطان أحدهما بالآخر، ارتباطا لا انفصام له) (٣)

وينتقد معتقد الحياة الدائمة بعد الموت، المبني على الوحي والعلوم الغيبية بسخرية تنبئ عن أنه مكلف بتقديم بديل للحياة الأبدية الأخروية، التي يعتقد الناس وجودها، وعليه أن يحصر الحياة بجميع صفاتها في هذه الحياة العاجلة (لأن الباعث الوحيد الذي يدعو إلى الاعتقاد بفناء الشعور بعد الموت، هو رؤية الجسم يفني، ولا يكون لهذا الباعث من قيمة إذ كان استقلال جل الشعور إن لم يكن كله عن الجسم واقعة مرئية هي الأخرى، إننا حين نعالج مسألة البقاء على هذا النحو، فننزلها من القمم التي وضعتها فيها الميتافيزياء (علوم الغيب) التقليدية، تنتازل ولاشك عن الحصول على حل قطعي دفعة واحدة، ولكن ماذا تريدون ؟

إنه لا بد في الفلسفة من الاختيار بين طريقتين: طريقة الاستدلال العقلي المحض، الذي يرمى إلى نتيجة نهائية، لا يتكامل، لأنه يفترض لنفسه الكمال، وطريقة الملاحظة الصابرة، التي تؤدي

(1) H. Bergson: Essai sur Les Donnees Immediates le Conscience p98

(٢) انظر برجسون للدكتور زكريا إبراهيم ، ص ١٧٤ .  
(٣) الطاقة الروحية لهنري برجسون، ص ٤٢ ترجمة سامي الدروي .

إلى نتائج تقريبية فحسب، إلا أنها قابلة لأن تُصَحَّح وتُكَمَّل باستمرار).<sup>(١)</sup>

### مناقشة نظرية دوام الحياة

نصوص برجسون السابقة يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- ١- تتكون الحياة من جسد وروح.
- ٢- الروح يعني التغيير، وعدم الثبات، وعدم الفناء، والسعي إلى المستقبل دائما وأبدا.
- ٣- حياة الروح غير حياة الجسد، وإن الانفكاك بينهما حاصل ملموس.
- ٤- تنحصر ديمومة الحياة في الحياة الدنيا التي نعيشها، وستغلب على الموت لاحقا.
- ٥- الرجل مكلف بنقض معتقد الديانات الإلهية في الحياة الآخرة الأبدية، وتقديم البديل في صورة الحياة الدنيا.

وعند النظر في النقطة الأولى: لا يسع أحد الاختلاف مع برجسون، فالحياة تتركب من جسد خارجي وشيء داخل هذا الجسد، لا يعرف الناس حقيقته حتى هذه اللحظة، ويسمون ذلك المجهول بالروح، ونوع برجسون في تسمياته - أنا الداخلية، الحدس، الذات، الشعور... - إلا أن هذه التسميات المتنوعة لا ترفع عنه الجهالة، ولا يمكن تقديمه إلى الناس كشيء معلوم.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة المجهولة فقال سبحانه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(٢)</sup>

يقول ابن كثير في تفسير قوله سبحانه: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم، ولهذا قال ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى، والمعنى أن علمكم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى).<sup>(٣)</sup>

إذن حقيقة الروح مجهولة، استفادت منه البشرية في الماضي وتستفيد منه الآن وتستفيد منه في المستقبل، دون أن تعرف ماهيته وجزئيات تكوينه، وتفسيره بالفلسفة ضرب من الوهم والخيال، لا يقود إلى كشف الحقيقة والواقع.

وحين ننظر إلى النقطة الثانية: من أن الروح يعني التغيير و إتيان الأعمال الجديدة...، لم يقدم برجسون شيئا جديدا في حقل المعرفة، كل الذي قاله مسلم به منذ وجود أول إنسان على وجه الأرض، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والسؤال الذي يفرض نفسه لماذا يتوقف التغيير بالموت، فإن كان تفسير التوقف بالاعتلال واعتراء الموت ممكنا في كثير من الحالات البشرية، فبماذا تفسر الحالات التي لا اعتلال فيها عند حدوث الوفاة، وهي كثيرة أيضا تضارع الحالات الاعتلالية، ومع ذلك توقف الجسد عن الحركة والتغيير، فماذا حدث له؟ لا شيء في الظاهر المادي المحسوس أوقف الحركة والتغيير، كل آلات الجسم سليمة، قادرة على أداء الحركة، إلا أنها لا تتحرك فماذا حدث؟ لا تجد إجابة لهذا التوقف إلا في معتقد الناس المتوارث "أمر الله"، فالكون بما في ذلك الإنسان خاضع له، فبأمره

(١) الطاقة الروحية ص ٤٤ وانظر، ص ٥٨ / وانظر الطاقة الروحية لهنري برجسون ص ٧٣، ترجمة الدكتور علي مقلد.

(٢) سورة الإسراء، آية ٨٥.  
(٣) تفسير القرآن العظيم: ج ٣ ص ٦١.

يتحرك وبأمره يتوقف، إذن محاولة تفسير الروح بالحركة محاولة تفسيرية يائسة، لم تقدم أي جديد يمكن للإنسان الاعتماد عليه.

وعند النظر في النقطة الثالثة: من أن حياة الجسد غير حياة الروح، وأن الانفكاك بين حياتيهما حاصل ملموس، أمر لا تتكره الديانات الإلهية.

والاعتراف بهذا الانفكاك عند من لا يؤمن بالمعتقدات الدينية، ويحصر المعرفة في التجربة والمحسوس أمر غير ممكن، لأن الروح لا تشاهد، فإن كنت تستطيع إثباتها في الجسد الحي بالحركة، فأنت غير قادر على إثباتها في الجسد الميت، فأين ذهبت؟ وما مكان إقامتها؟ وهل هي في حالة سعادة أو شقاء؟

كل هذه الأسئلة لا يملك المادي الإجابة عليها، فهلا أخبرنا برجسون بمكان وجود الروح بعد موت الجسد الذي كانت فيه؟ فليس أمامه إلا خياران: وكلاهما مبناه المعتقد، لا العلوم التجريبية. أ - تخرج من جسد الميت وتدخل جسداً آخر ذو ولادة حديثة، كما هو معتقد الديانة الهندوسية الحديثة في تناسخ الأرواح.

ب - تخرج من الجسد الميت ولا تدخل جسداً آخر، ولا تفاوت في درجاتها في بقائها البرزخي، فمن الأرواح ما تحبس عند قبور أصحابها، ومنها ما هي في قناديل مظلة في الجنة.....، كما هو معتقد الإسلام

هذا وقد أخبر القرآن الكريم أن الموت مملوك لله، وأن الروح تفارق الجسد حالة النوم وحالة الوفاة (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (١).

إذن حياة الروح غير حياة الجسد، والانفكاك بينهما حاصل دون ريب، ونيل المعرفة عنه يرتبط بالوحي لا النظر الحدسي ولا التجارب المعملية، وربما تسرب علم الانفكاك إلى عقل برجسون من المعتقد الذي ورثه من أبيه وأمه المؤمنين بالمعرفة الغيبية.

وفي النقطة الرابعة: يحصر برجسون دوام الحياة في الحياة الدنيا، ويتمنى أن يقدم العلم التجريبي كبسولة ديمومة الحياة، أو حُقنة القضاء على الموت في هذه الحياة العاجلة، ويُنتقد ذلك من وجهين:

١- فمنذ فجر التاريخ نجد الحياة تحل في الأجسام ثم تفارقها بالموت، ولا استمرار لمن دخلت فيه، وتلك سنة الله في كل كائن حي، وإن الموت سيصطاد كل من تمتع بالحياة، قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ دَانِقَةٌ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُنْجِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) (٢).

أما أمنية برجسون بتقديم العلم المادي للقضاء على الموت واستمرار الحياة، ستظل أمنية غير قابلة للتحقيق، وربما طَلَبَ البشر أنفسهم حلول الموت، ولاسيما عند الهرم وعجز القوى الجسدية، وانعدام المعين لقضاء الحوائج، وتضايق المحيطين به.....، فيتمنى الإنسان مفارقة الحياة، كما يتمنى صالحو البشر استعجال لقاء الله على الحالة التي ترضي ربهم عز وجل، ويريدون الخروج من سجن الدنيا إلى سعة الآخرة.

٢- نصت كل الرسائل الإلهية أن دوام الحياة لا وجود له، إلا بعد يوم العرض والحساب،

(١) الزمر آية ٤٢ .  
(٢) سورة آل عمران آية ١٨٥

ومحاسبة الناس على ما قدمت أيديهم في هذه الحياة الفانية، فمنذ عهد آدم إلى آخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم وهم يُنصُّون على وجود يومٍ يبعث فيه الناس بعد الممات، ويحاسبون على أعمالهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، قال تعالى في خلود الكفار في النار وخلود الصالحين في الجنة ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾<sup>(١)</sup>

كما ذكر القرآن الكريم المحادثة التي ستجري بين عيسى ابن مريم عليه السلام وبين خالقه تجاه قضية الألوهية يوم القيامة، وما أخبر به القرآن حق واقع لا مجال للريب فيه، فالمحادثة ستجري في ذلك اليوم، ووجودها حق ثابت، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾<sup>(٢)</sup> و﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ﴾<sup>(٣)</sup>

وقد أخبر القرآن الكريم أنه لا دوام لأحد في هذه الحياة العاجلة، بما في ذلك الرسل والأنبياء فالموت يلحقهم كما يلحق غيرهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبِّئُوهُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَيَتَّقُوا وَالَّذِينَ تَرَجَعُونَ﴾<sup>(٤)</sup>

وعند النظر إلى النقطة الأخيرة: لا يحتاج الأمر إلى كثير عناء، فالخطة مكشوفة، وطريق التنفيذ هيئاته الكنيسة، وذلك بتقديم الديانة النصرانية المحرفة المصابة في صميم عقيدتها، فقد تحول التوحيد إلى التثليث، وشعائر التعبد إلى طقوس لا روح فيها، فكل من يعارضها يلقي العقاب الصارم، فالنفوس مستعدة لتقبل كل ما يعارض الكنيسة، فقدم برجسون بضاعته في صورة: أن هذه الحياة الدنيا هي الحياة الأبدية، وأن ما تقول به التوراة والأنجيل عن حياة يوم القيامة الأبدية خرافة، كخرافة الأرض المسطحة، وبذلك تقبل الناس خرافة التأبيد في هذه الحياة الدنيا، وأنها هي الأولى وهي الأخيرة، فاهتبلوا منها أكبر قدر ممكن من الميزات. وبذلك تم هدم معتقد الحياة الأبدية يوم القيامة، واكتست الحياة الدنيا التأبيد، وبذلك حقق اليهود مخططهم البروتوكولي من وراء مثل هذا الابن البار.

(١) سورة البقرة، آية ٨١، ٨٢.

(٢) سورة المائدة، آية ١١٦.

(٣) سورة المائدة، آية ١١٩.

(٤) سورة الأنبياء، آية ٣٤، ٣٥.

## الفصل الثالث: برجسون وتطور الحياة

- ١- نشأة الحياة.
- ٢- التطور الخالق.
- ٣- مراحل تطور الحياة.

### نظرية نشأة الحياة

قبل الحديث عن تطور الحياة وتغيرها، لا بد من وضع بصمات واضحة عن كيفية وجود الحياة، ومنْ مُوجدْها ؟ وفي أي كائن ظهرت لأول مرة...، لأن التطور صفة من صفاتها فلا



يسعنا التحدث عن الصفة قبل وجود الموصوف. فحين ننظر إلى كتابات برجسون لا نجد الحديث التفصيلي عن وجود الحياة وموجدها ولا الظروف التي أوجدتها، بل كل الذي نجده عند الرجل جملاً مبتورة مبهمه، وتصورا ناقصا لا يقود إلى وضوح الرؤية الذهنية، رغم أن الرجل بليغ في تقديم التشبيهات والجمل البلاغية. ومن هذه الجمل المبهمة عن نشأة الحياة (نحن هنا بصدر تيار حي قد نبع في وقت ما، وفي نقطة ما، من مكان ما، واجتاز أجساما كَوَّنَهَا على التعاقب والتنقل من جيل إلى جيل، وما لبث أن انقسم بين الأجناس وتشتت بين الأفراد، دون أن يفقد شيئاً من قوته، بل إنه ازداد شدة كلما أوغل في التقدم).<sup>(١)</sup>

ويعرف برجسون الحياة بأنها (نزوع إلى الفعل، وميل إلى التأثير على المادة الخام، إلا أن اتجاه الفعل غير محدد من ذي قبل، ومن هنا فلا سبيل إلى التنبؤ مقدماً ما ستوجدتها الحياة في مراحل تطورها المستقبلية)<sup>(٢)</sup>

لا شك أن الرجل لم يرتض التفسير الدارويني لوجود الحياة، المبني على اتحاد عناصر كيميائية في ظروف ملائمة خاصة، أظهرت صدفه الخلية الأولى، وتطورت هذه بدورها في سلسلة التطور الطويلة، ووصلت إلى ما عليها اليوم.<sup>(٣)</sup>

وقد نقد برجسون صدفية الحياة علمياً، بوجود عضو العين، الذي يتم عن طريقه الإبصار، في صورتين مختلفين في كل من الحيوانات الفقارية والحيوانات الرخوة، رغم اتحادهما في التطور.<sup>(٤)</sup>

رغم وجود هذا النقد العلمي لم يقدم برجسون البديل المقنع لنشأة الحياة، كل الذي قدمه أن للحياة أصلاً غير مادي، وأنها انطلقت من خزان كبير للحياة، وتناثرت صورها في كل الكواكب التي تدور في ركب النجوم، واتخذت أشكالاً لا يصل إليها خيالنا البشري، في ضوء ما أحاط بها من ظروف.<sup>(٥)</sup>

وفي تشبيهه المشهور يرى أن الحياة أشبه بنفث البخار، المنطلق من خزان كبير، وأن المادة أشبه بقطرات البخار المُنكَّفة، التي سقطت في الاتجاه المضاد، أما الأحياء المتنوعة فهي كل ما تبقى من ذلك النفط الأصيل، الذي يحاول أن يوقظ ما تساقط منه.<sup>(٦)</sup>

### مناقشة نظرية نشأة الحياة

من منطلق نقد القائم وتقديم البديل، قدم برجسون نظريته في وجود الحياة، فتخبط تخبطاً واضحاً، لا يقره العقل في المعطيات المقدمة من علم البيولوجيا (الحياة) فلو ظل الرجل على إيمانه بالتوراة أو الإنجيل، لما احتاج إلى مثل هذا الوهم الفلسفي، لأن المعلومات المتوفرة عن وجود الحياة في الكتب المنزلة على رسل الله تغني عن هذا التخبط، ولو عاش الرجل إلى الأونة ا لمعاصرة لرجع عن كثير مما توهمه، في جولاته الفكرية الفلسفية.

فحين ننظر إلى النصين السابقين نجد الرجل قدم أوصافاً للحياة من أهمها:

(١) Challaye: Bergson, p183.

(٢) Challaye :Bergson,P105.

(٣) Challaye: Bergson,P95.

(٤) Challey:Bergson,98.

(٥) Energie Spirituelle: H-Bergson, p-63.

(٦) انظر، Energie Spirituelle: H- Bergson, P268+272.

- (١) تيار حي .
- (٢) نبغ في وقت ما .
- (٣) في نقطة ما .
- (٤) في مكان ما .
- (٥) اجتاز أجساما على التعاقب.
- (٦) انقسم بين الأجناس والأفراد .
- (٧) لم يفقد من قوته شيئا في تقدمه المستمر.
- (٨) الحياة تنزع إلى الفعل والتأثير في المادة الجامدة .
- (٩) وجهة التأثير مجهولة .
- (١٠) لا يمكن التنبؤ بما ستوجده الحياة .

فكل هذه الأوصاف لا تقدم لنا أية دلالة على كيفية وجود الحياة، ومَنْ موجدتها الأول، وفي إلى كائن وضعت رحالها في بداية وجودها...؟

وأما ما قاله من أن أصل الحياة غير مادي، متناثر الصور والأشكال، لا يصل إليه الخيال البشري، وأن الحياة أشبه بخزان ممتلئ بالبخار، وأن القطرات المكثفة المتساقطة هي المادة بصورها المختلفة، وأن الأحياء المتنوعة هي البخار المتبقي من الحياة. تشبيه برجسون شبيهه بتشبيه العميان، الذين قيل لهم صفوا لنا الفيل، بعد أن أخذوا إليه للجس ونقل الصورة إلى الذهن، فمن وقعت يده على أرجله قال الفيل كوتد الخيمة، ومن وقعت يده على أنيابه قال الفيل كالسكاكين الحادة...

لم يكن برجسون في حاجة إلى كل ما قاله عن الحياة، لو اعترف بمصدر المعرفة الرسولية عن طريق الوحي، فإن الإجابة في ذلك المصدر لا تحتاج إلى عناء، تقول التوراة السامرية عن وجود الحياة (وقال الله تخرج الأرض نفسا حية لجنسها، بهيمة ودببيا ووحشية الأرض لجنسها، وكان كذلك وصنع الله وحشية الأرض لجنسها، والبهائم لجنسها، وكل دبب الأرض لأجناسه) (١) وفي التوراة العبرانية (وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها، وكان كذلك، فعمل الله ووحوش الأرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبابات الأرض كأجناسها). (٢)

أما وحى الله الأخير الذي أنزله على آخر رسله، فالأمر فيه أوضح من الشمس في رابعة النهار، فقد نص على موجد الحياة، وأن الله هو خالقها، كما أنه خالق السماوات السبع (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ) (٣)

فالحياة مخلوقة خلقها الله، فليعترف الإنسان بأن موجدتها هو الله عز وجل، وليخفف العناء عن العقل، لأنه لم يخلق لمثل هذا البحث والتنقيب، بل خلق لاستكشاف سنن الله وقوانينه في الكون، التي يسير الله بها مخلوقاته، فيستفيد منها في حياته العاجلة.

(١) سفر التكوين الإصحاح الأول فقرة ٢٤، ٢٦، ص ٣٦ .  
 (٢) سفر التكوين الإصحاح الأول فقرة ٢٤، ٢٥، ص ٤ .  
 (٣) سورة الملك، آية ١-٣.

### التطور الخالق

كلمة التطور مأخوذة من الطَّوْر التي تعني في اللغة العربية التحول، والقرب، والمرة، والتارة، والحد، والحال والهيئة، وجوار الشيء، والمنتهى، ويقصد به هنا التحول من هيئة سابقة إلى هيئة لاحقة مثلى، أو الرقي من حال أدنى إلى حال أرقى (١).

لم يُعوّد برجسون نفسه بتقديم تعريف محدد للشيء الذي يريد الحديث عنه، أو النظرية التي يريد تقديمها إلى العالم، بل يعوض عن ذلك بذكر أوصاف الشيء ومحتوياته وما يقود إليه، لذا لا نعدو الحق إن قلنا أنه ألزم نفسه في باب التعريف بالشيء: تعريف الشيء بالوصف، لا الحد الذي يفضله علماء المنطق، لذا لا نجد له تعريفا دقيقا لنظرية التطور التي قدمها إلى البشر.

فمن أوصاف التطور عنده، الاستمرار والنمو والنضج وخلق الموجود ذاته بلا انقطاع، لذا ينص على ما لاحظته من التطور في دراسة الحياة النفسية فيقول: (إن دراستنا للحياة النفسية قد أطلعتنا بوضوح، على أن الوجود بالنسبة إلى الكائن الواعي المتصف بالشعور هو التغيير، والتغيير معناه النمو والنضج، والنضج هو أن يخلق الموجود ذاته بلا انقطاع). (٢)

ويرى أن ظاهرة التغيير والتحول موجودة حتى لدى الكائنات الدنيا، المكونة من خلية واحدة، فالموجودات الحية تخضع لتحولات دائبة، وتطور مستمر ودوام لا ينقطع، وتصل به القناعة إلى أن التحول في الجسم الحي هو الأساس، لا وجوده الظاهري الملموس، وأن التغيير هو الأصل لا الثبات. (٣)

ونجد الرجل يصف تطوره بأنه استمرار التقدم وتتابعه إلى مالا نهاية، وإنه يتحقق عبر الأجناس المتعاقبة، التي تحتوي طاقة حيوية، قوامها النشاط المستمر والعمل الدؤوب في صور جديدة من الحياة. (٤)

ويمهد لوجود أشكال الحياة المتعددة، فيرى أنها أتت عن طريق التطور، وان استمرار التغيير يعني المحافظة على الماضي في صورة الحاضر (فلو لا حظنا جنين الطير و جنين الثعبان في فترة معينة من فترات تطورهما، لوجدنا أن الفارق بينهما لا يكاد يذكر، وهذا يقودنا إلى القول بأن الفرد الحيواني مر في تطوره على الخط الذي مر عليه فرد الطير، من التحولات المتعاقبة، تم خلالها الانتقال من جنس إلى جنس، لذا نجد كل يوم خروج أشكال جديدة متطورة من الحياة، خرجت من الشكل البدائي أو صورة أولية، بما أن الأمر كذلك، ألا يحق لنا أن نقول أن عقد أشكال الحياة صدر عن أكثرها بساطة، عن طريق التطور) (٥)

ويصف الرجل تطوره بأنه خلق مستمر، واختراع لا ينقطع وإبداع لا نهاية له، وجدّة مستمرة، فهو تطور خالق لا يمكن التنبؤ بمستقبله، ولا الغاية التي يضمورها. (٦)

وينشأ التطور في نظر برجسون من الصراع القائم بين المادة (٧) الجامدة، التي تريد الثبات والركون إلى الراحة، وبين الحياة التي تريد الحركة والوثوب، وقد كافحت الحياة ضد جمود المادة، ولولا هذه المقاومة التي أقيمتها الحياة من جانب المادة غير الحية، لما اضطرت الحياة إلى

(٢) انظر مادة طار المعجم الوسيط ج ٢ ص ٥٧٥ .

(٣) التطور الخالق، ص ١٠ H-Bergson p-10 Evolution Create.

(٤) انظر. Evolution Create :H- Bergson P17

(٥) انظر. Evolution Create :H – Bergson P 30 .

(٦) Evolution Create :H – Bergson P 24 .

(٧) انظر. Evolution Create :H – Bergson P 114+103

(٨) المادة في نظر برجسون هي المظاهر التي تؤلف الكون أنظر التطور الخالق، ص ٢٧٢.

التفرق والتشتت، على شكل أنواع وأفراد. (١)  
 وإن الوثبة الحيوية هي العمود الفقري لكسر هذه المقاومة، عن طريق التطور، فالوثبة تعني تلك القوة المشتركة بين سائر أنواع الحياة، التي تطور الأنواع المختلفة المتشابهة من بعض الوجوه. (٢)

وإن علم الحفريات يلزمنا بوجود مثل هذه الوثبة، لإظهاره أنواعا من الحياة غير المتطورة، ضئيلة العدد، وأنواع أخرى كثيرة العدد، اتخذت الحياة وسيلة للتطور. (٣)  
 وقد كانت الحياة عند ظهورها المبدئي، أشبه ما تكون بالمادة في الجمود والاستقرار، لأنها كانت تنحصر في النبات وحده، وما لبثت أن طلبت الحرية من قيود المادة، وراحت تبحث عن نموذج تحقق فيه مبتغاها، فاخترت أنواع الحيوانات وزودتها بالأعضاء، كي تحقق شيئا من الحرية المنشودة، ثم ما لبثت أن وضعت كل آمالها في واحد من تلك الحيوانات جميعا، ألا وهو الإنسان. (٤)

### مراحل تطور الحياة

وقد مرت الحياة في تطورها عند برجسون بثلاث مراحل:

- ١- مرحلة النبات إذ كانت الحياة في مبدأ ظهورها أقرب إلى سكون المادة وجمودها، فقد كانت تتمثل في النبات وحده، وبوثبة حيوية (٥) ناشدة للحرية انتقلت من مرحلة النبات إلى مرحلة الحيوان الغريزي.
  - ٢- مرحلة الحيوان الغريزي الذي يسعى في حدود مرسومة ومنهج معلوم، وخير من مثَّل الحياة في هذه المرحلة النمل والنحل، وبوثبة حيوية ناشدة للحرية انتقلت من مرحلة الحيوان الغريزي إلى مرحلة الحيوان الفقاري.
  - ٣- مرحلة الحيوان الفقاري الذي سلك مسلك الفكر والبحث، وما زال ينمو ويشد ويصلب عوده يوما بعد يوم، فهو ذخر الحياة وأملها الذي سيحقق لها ما تنشده من الحرية والذوام، ووجدت كل ذلك في الإنسان فاستقرت فيه. (٦)
- وما أن وصلت الحياة إلى الإنسان حتى وجدت فيه العقل والذكاء، والقدرة الفائقة على استخدام أدوات غير عضوية، وذلك بصناعة آلات متعددة المنافع، فاستغل المادة في أغراضه النافعة، فالنوع الإنساني هو الذروة التي بلغها التطور، في سلسلة الحيوانات الفقارية. (٧)
- ويصل التطور عن طريق الوثبة الحيوية عند برجسون، إلى إزاحة كل العوائق التي تقف في طريق الحياة، فيحطم كل ضروب المقاومة حتى تنال الحياة انتصارها على كل الأعداء، ومن يدري فربما تستطيع الإنسانية يوما أن تتغلب حتى على الموت، ولكن عقلنا مفتوح لآمالنا، لأن جميع الأشياء ممكنة عن طريق تطور الحياة. (٨)
- وإن الوثبة الحية حين نقلت الحياة من الحيوان إلى الإنسان عن طريق التطور، فإنها

(١) انظر . Evolution Create :H – Bergson P 103

(٢) انظر . Evolution Create :H – Bergson P 59

(٣) انظر . Challaye: Bergson, p-183+283+272+39

(٤) انظر . Evolution Create :H – Bergson P 267

(٥) يعرف برجسون الوثبة الحيوية (بأنها القوة المشتركة التي تنتشر في سائر الأحياء فتجعل تطور الأنواع متشابهة من بعض الوجوه) EVO... Cre... H.B, p-59 وانظر ص ٢٨ + ٢٧١ إذ يشترط برجسون وجودها لامتداد مبدأ التطور.

(٦) انظر تفصيله في التطور الخالق P. 114 Evolution Create :H - Bergson P.

(٧) انظر . Evolution Create :H – Bergson P 135-137

(٨) انظر . CF.R.Berthelot un Pragmatisme Utilitaire, T. II. P 48

نقلت المحدود إلى اللامحدود، بل نقلت المغلق إلى المفتوح، وإن هذا الانتقال هو الحد الأقصى لعملية التطور، وإن الأنواع السابقة من الحياة لم تخلق لخدمة الإنسان، وإنما وَجِدَتْ في الإنسان غايتها المنشودة، لِتَمَيُّزِهِ بالعقل فاستقرت فيه، ويمكن عد ذلك نقطة النهاية في عملية التطور. (١)

### التلخيص

يمكنني إجمال ما قاله برجسون عن تطوره الخالق في ست نقاط:

- ١- ينشأ التطور من الصراع القائم بين المادة الجامدة، وبين الحياة المتحركة ويعني النمو والنضج.
- ٢- يمتاز التطور بأوصاف أهمها: أنه خلق مستمر واختراع لا ينقطع، لا يمكن التنبؤ بمستقبله، يخرج كل يوم أشكالاً جديدة من الحياة...
- ٣- مر تطور الحياة بثلاث مراحل مرحلة النبات، فمرحلة الحيوان الغريزي، ومرحلة الحيوان الفقاري، وسيلته في ذلك الوثبة الحيوية.
- ٤- يخلق الشيء نفسه، وأنه غير محتاج إلى خالق يخلقه، وإن النمو والنضج يعني خلق الموجود ذاته.
- ٥- أنواع الحياة السابقة لم تخلق لخدمة الإنسان.
- ٦- استقرار الحياة في الإنسان هو نهاية التطور.

### مناقشة مراحل تطور الحياة

حين ننظر إلى النقاط الستة، نجد الواقع المشاهد والتجارب المعملية لا تسندها على الإطلاق. (١) ففي النقطة الأولى: نجد الرجل يبني التطور على الصراع بين الحياة المتحركة وبين المادة الجامدة، التي لا تريد الحركة، فكلمة الصراع تعني عدم الانسجام ووجود العداوة بين شيئين، وأن أحدهما يريد التغلب على الآخر، فيفوز القوى ويندحر الضعيف.... كل ذلك غير مشاهد في مظاهر المادة المختلفة، وربما العكس هو المشاهد الملموس، فمظاهر المادة تنقاد للإنسان متى تمكن من كشف قوانينها، ومتى أمكنه كشفها تنقاد له دون تردد، لأنها خلقت لخدمته، فمن الظلم أن نتصور الصراع بين المادة والحياة والحال كما ذكرت. فلو كان الأمر كما يقول برجسون، لوجدنا التناوب في الفوز والانهزام، ولو مرة واحدة في بعض أنواع الصراع، فتفوز المادة وتنهزم الحياة، إلا أن ذلك غير مشاهد لدي الناس، بل العكس هو الذي تشهد به مسيرة الإنسانية، وهو الملموس والمعائن، فالونام والانسجام هو الموجود في كل ذرة من ذرات الكون، فخدمة إحداها للأخرى وتيرة مظهره، فالحرارة تبخر المياه فينزل المطر، فينبت الزرع فيأكله الحيوان، ويتغذى الإنسان على لحم الحيوان.

إذن كل ذرة تخدم الأخرى في غاية الانسجام والونام، قال تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ \* الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فارجع البصر هل ترى من

(١) انظر . Evolution Create :H – Bergson P 113

فُطُورٍ \* ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿١﴾  
يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (هو مصطحب مستوي، ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ولا نقص ولا عيب ولا خلل، ولهذا قال ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ أي انظر إلى السماء فتأملها هل فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً) (٢)

(٢) وفي النقطة الثانية: الخاصة بأوصاف تطور الحياة، فالأمر مرفوض لا مجال لقبوله على الإطلاق، وعند فحص هذه الأوصاف في معطيات العلوم التجريبية، لاسيما علم الحياة نجدها تبرز لنا ما يناقض قول برجسون، وأخص بالذكر علم الوراثة في فروعه المتعددة، ولا أشك أن المتخصص في علم الوراثة - لاسيما علم الجينات - سيستهزئ اليوم بما قاله برجسون، في تنوع الحياة من المصدر الأساسي الواحد.

فمن أبجديات علم الجينات في كل نوع من أنواع الحياة، أنه ثابت العدد، لا يختلف من فرد إلى آخر، مهما تنوع وتعدد، فجينات الإنسان محددة بست وأربعين جيناً، لا تزيد عليه ولا تنقص عنه. (٣) وجينات البصل والفجل محددة لا تزيد ولا تنقص، ومتى اختلفت الجينات في نوع ما من الحياة، بسبب التهجين من غير جنسه لا يستمر التناسل، كالبيغل فإنه نتاج الفرس والحمار، فاختلاف الجينات بين نوعين مختلفين كقبيل يقطع التناسل، لذا لا يتناسل البيغل. (٤)

نستنتج من ذلك أن كل جنس من الحياة له الاستقلال التام، لم يأت متناسلاً من جنس آخر، يجتمع فيه هو وغيره في ذلك الجنس السابق، فعلم الجينات (كروموسومات) يُقسّم الظهر لكل ما قاله برجسون وتكهن به، من منطلق الفلسفة وتقديم الجديد إلى البشر، حتى ولو كان ذلك على حساب العلم.

(٣) وفي النقطة الثالثة: التي حصر فيها مراحل تطور الحياة في ثلاث لم يأت بجديد، بل كل الذي فعله أنه انقص مراحل التطور عن من سبقه من القائلين به، وكل ذلك ظن وتخمين، فلا الدارون شاهد الحياة وهي تتطور، وتمر بالمرحل المختلفة، ولا برجسون شاهد الحياة وهي تتطور، وتمر بثلاث مراحل، بل كل ذلك تخمين لا يعتمد على دليل علمي تجريبي معلمي، أو دليل من الوحي الإلهي.

بل علم الوراثة يقدم الأدلة المناقضة على هذه المراحل الثلاث، وإن كل جنس من الحياة في كل هذه المراحل له استقلاله التام، لا يشاركه فيه غيره، لأن علم الكروموسومات يأبى ذلك.

فحياة النبات له مورثاته الخاصة به لا تعدوها، وحياة الحيوان الغريزي له مورثاته الخاصة به لا تعدوها، وحياة الحيوان الفقاري له مورثاته الخاصة به لا تعدوها، وفي الأجناس الثلاثة التي قال بها برجسون عشرات الأجناس من الحياة، لا تشترك إحداها مع الأخرى، لاختصاص كل جنس بكروموسوماته الخاصة، ومتى اختلفت الكروموسومات انقطع التناسل والاستمرار.

وفي ضوء معطيات علم الوراثة، فهناك مئات الأجناس من الحياة لا تشترك إحداها مع الأخرى، بل لكل استقلالها، ولكل مورثاتها الخاصة بها، فمورثات البقر غير مورثات الإبل، ومورثات الإبل غير مورثات الفرس، ومورثات الكلاب غير مورثات الماعز...

(١) سورة الملك، آية: ١-٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج ٤ ص ٣٩٦.

(٣) انظر كتاب الأحياء المقرر للصيف الثاني الثانوي الفصل الدراسي الأول، ص ١٤٤ لمدارس المملكة العربية السعودية طبعة ١٤٢٩-١٤٣٠.

(٤) انظر كتاب الأحياء المقرر للصيف الثاني الثانوي الفصل الدراسي الأول، الطفرات الجينية، ص ١١٠.

وقس على ذلك مورثات الدجاج فإنها غير مورثات الحمام، ومورثات الحمام غير مورثات العصافير، ومورثات النمل غير مورثات النحل، ومورثات النحل غير مورثات الصرصار، ومورثات شجرة التين غير مورثات شجرة التفاح، ومورثات شجرة التفاح غير مورثات شجرة البرتقال...، فعلم المورثات يدحض كل افتراءات التطور دون مواراة.

(٤) وعند النظر إلى النقطة الرابعة: من أن الشيء يخلق نفسه، وأنه لا يحتاج إلى منشئ وموجد يوجد...، القول بمثل ذلك لا يقره السابقون من البشر، ولا الموجودون، فلو نظر برجسون إلى وجوده الخارجي نفسه لكذبه شعوره الداخلي، ولحكم عليه الحدس - الذي يعتبر برجسون حكمه نهاية المعرفة - بالقول غير المعقول عند العقلاء: من أن الشيء يخلق نفسه، فلو لا وجود أمه وأبيه والتقاؤهما تحت السقف الزوجي لما خرج برجسون إلى حيز الوجود.

ولولا وجود برجسون لما وجدنا نظرية حصول المعرفة عن طريق الحدس، ولا وجدنا نظرية التطور ثلاثية الأبعاد، ولا وجدنا نظرية الوثبة الحيوية، ولا وجدنا كهانة خلق الإنسان من جنس غير الإنسان، لاسيما بعد تقدم علم الوراثة الحيوية وعلم الجينات.

وقد كشف القرآن الكريم هذا الزيغ في صورة لا تقبل الشك، ووضع الاحتمالات الممكنة لوجود البشر، ونقضها بدليل عقلي مقنع، قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾<sup>(١)</sup>

ويحلل ابن كثير هذا الالتفات الرباني المفضي إلى الإقرار بالرب الخالق، الذي لا يستحق العبادة سواه، فيقول (هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية فقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أي اوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم، أي لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً)<sup>(٢)</sup>

(٥) وعند النظر إلى النقطة الخامسة: من أن أنواع الحياة السابقة لم تخلق لخدمة الإنسان، نجد الموجودات الكونية لا تؤيده من وجهين: الواقع والوحي.

(أ) فعند النظر إلى واقع أنواع الحياة المختلفة، تجدها تخدم الإنسان، فالحيوان بلحمه يخدم الإنسان، والأشجار المثمرة بثمراتها تخدم الإنسان، وغير المثمرة بأخشابها تخدم الإنسان، والبقوليات في تقديم الغذاء وتلبية مطالب الجسد تخدم الإنسان، والمياه بالإرواء والقضاء على العطش... تخدم الإنسان.

(ب) وأما الوحي فقد جزم بما لا يدع مجالاً للشك، بأن كل ما على وجه الأرض وفي باطنها خلقه الله لخدمة الإنسان، وتلبيةً لاحتياجاته الجسدية، قال تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ \* هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾<sup>(٣)</sup>

(٦) وعند النظر إلى النقطة الأخيرة: في تطور الحياة عند برجسون، التي جزم فيها أن النهاية في تطور الحياة هي الإنسان، وهو بذلك ينفي الخلق المباشر من الله للإنسان، ويعارضه في ذلك القرآن الكريم، الذي هو أصدق كتاب على وجه الأرض في تقديم

(١) سورة الطور، آية: ٣٤ - ٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج ٤ ص ٢٤٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨، ٢٩.

## المعرفة.

فقد أخبر أن خلق آدم جاء مباشرة من الله عز وجل، دون واسطة أو تطور، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ \* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ \* فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ \* إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ \* قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (١)

ففي ضوء الآيات السابقة نجزم بـ :

١- خَلَقَ اللهُ آدمَ من طين وهو التراب + ماء.

٢ - خلق الله آدم بيده.

٣- أسجد له ملائكته.

٤- سجد الملائكة كلهم لآدم، وامتنع إبليس عن السجود.

٥- تم كل ذلك لعين آدم، لا لجنسه ولا لنوعه.

(ب) يشهد العلم التجريبي الحديث أن الكائن الأعلى ربما أنتج كائنا أدنى، كالأم والأب العاقلين يولدان ولدا غير عاقل، أو أبوين كاملين في الخلقة ينتجان مولودا ناقص الخلقة، أما العكس فلا يوجد إلا شاذاً نادراً، لذا لم يبحث عنه العلم، والقول بالتطور عموماً والبرجسوني خصوصاً يمثل الشاذ ويناقض شهادة العلم .

(ت) أثبت علم الجينات (المورثات) – ولاسيما بعد اكتشاف DNA وفك أجزاء من الشفرة الوراثية عدم التغير في الصفات الأساسية في كل المخلوقات، ومتى اختلفت الجينات أو اختلفت عن المعهود يموت ذلك الكائن، أو لا يستمر تناسله، فلو كان الإنسان أتياً من الحيوان الغريزي الذي تختلف جيناته عن الإنسان لما استمر الإنسان في التناسل، ولفنى منذ أمد بعيد.

(ث) لماذا يختص الإنسان بالتفكير دون سائر الحيوانات، رغم انحداره منها، وكان المفروض العكس.

(ج) ينفرد الإنسان بأشياء دون سائر الحيوانات، كتصنيع الطعام، وارتداء اللباس، دون سائر الحيوانات وهو فرعها، والمعروف أن الفرع يكون أضعف من الأصل، مهما ارتقى وتطور يظل دون مرتبة الأصل، بينما النظر إلى الإنسان يقودنا إلى أنه أقوى من الأصل الذي تناسل منه.

(ح) بما أن المادة شاركت الحياة في أصل الوجود، والإنسان أرقى نموذج وصلت إليه، كان المفروض أن ينطبق عليه ما ينطبق على المادة، إلا أن ذلك غير متوفر في الإنسان، فالمادة أيًا كان نوعها تتصرف تصرفاً واحداً، متى اتحد الجو وتماتلت الظروف، فالماء بكل أنواعه - ماء النهر، ماء البئر، ماء البركة، ماء البحر - يأخذ في التجمد متى سلبت منه درجة حرارة معينة، ويأخذ في التبخر متى سلطت عليه درجة حرارة معينة.

فبما أن الإنسان مادة يجب أن ينطبق عليه ما ينطبق على المادة، إلا أن المعهود إنه يتصرف أكثر من تصرف في الجو المتحد، مخالفاً بذلك قوانين المادة البحتة، إذن هو مادة وشيء آخر.

(خ) لماذا وقف تطور الحياة على الإنسان وحصر نفسه فيه، ولا يريد تجاوزه، رغم أن الإنسان حلقة من حلقات تطور الحياة، وعليها أن تتعداه كما تعدت النبات والحيوان الغريزي، أما قول

(١) سورة ص، آية: ٧١-٧٥.



برجسون إنها وجدت فيه بغيتها، قول لا يبرر وقوف التطور، بل قوله هذا حيلة المنقطع، ومن فقد الحجة والبرهان.

ليته اعترف باستقلال كل جنس من أجناس الحياة، وأن الله خلق كل شيء وأعطاه مميزاته، ولو قال ذلك لأغناه عن مثل هذه التعليقات غير المقبولة عقلا وعلماء، وقد تنوع ذكر الخلق وحصره في الله في مئات الآيات من القرآن الكريم، فمرة بالتنصيص على أفراد المخلوقات كالسماوات والأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١)

ومرة بالتنصيص على نوع من أنواع المخلوقات، وأنه الخالق له سبحانه قال تعالى ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢) وقال سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (٣)

ومرة بالإجمال وذكر صيغة العموم، وأنه خالق كل الموجودات التي يقع عليها أبصارنا وما لا يقع عليه أبصارنا، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ \* ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٤) وقال عز من قائل ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ (٥)

كل ذلك خاضع لعلمه وقدرته، وإنه وضع في كل مخلوق صفاته المميزة له، وقدرها محكم التقدير، ومن هذا التقدير ما يحمله المخلوق الحي في داخله من صفات الوراثة والكروموسومات، وأنه الوكيل بها دون ما سواه، وأن كل شيء يحفظ أسرار بهداية منه عزوجل، قال سبحانه ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (٦) وقال في سورة الفرقان ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (٧) وفي سورة القمر ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٨).

و لربما إلى مثله جاءت الإشارة الإلهية بعدم التغيير في السنن الكونية، قال تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٩) فلا مكان للتطور، وتنوع أجناس الحياة عن طريقه بعد بيان القرآن، وجاء علم الوراثة وقدم الشهادة التجريبية على صدق القرآن، باستقلال كل جنس من أجناس الحياة، فالتطور خرافة اخترعه العقل البشري، لظروف معينة وُجدت في الغرب الأوربي، للتخلص من قبضة الكنيسة، وإلهها المتحكم في كل الموجودات.

(١) سورة الأعراف ، آية: ٥٤.

(٢) سورة النحل ، آية: ٥.

(٣) سورة يس ، آية: ٧١.

(٤) سورة الأنعام، آية: ١٠١-١٠٢.

(٥) سورة غافر، آية: ٦٢.

(٦) سورة طه، آية: ٥٠.

(٧) جزء من آية: ٢.

(٨) سورة القمر آية ٤٩

(٩) سورة فاطر آية: ٤٣.

الفصل الرابع : برجسون و تطور الإنسان

تطور الإنسان

صفات الإنسان الأساسية.

الإنسان الاجتماعي.

الحياة الاجتماعية.

### برجسون وتطور الإنسان:

يجزم برجسون أن الطبيعة<sup>(١)</sup> هي الموجهة للنوع الإنساني أثناء التطور<sup>(٢)</sup>، وأن تطور الحياة قد أنهى مهامه بوصوله إلى الجسم الإنساني، واستقراره فيه، وعض توقفه بالعقل الذي منحه للإنسان، فحل العقل محل التطور، فارتفع بصنع الآلات التي تسهل مهام وجوده، (إن جسماً يحمل من العقل الصانع، ويحمل إلى ذلك هديات من حدس، تحيط بهذا العقل، هو أكمل شيء استطاعت الطبيعة أن تفعله، وذلك هو الجسم الإنساني، وهنا توقف تطور الحياة، ولكن العقل قد ارتفع بصنع آلاته إلى درجة من التعقيد والكمال، لم تستطع الطبيعة أن تنتبأ به، وسكب في هذه الآلات من مدخرات الطاقة ما لم تستطع الطبيعة أن يخطر لها على بال)<sup>(٣)</sup>

(١) يعرف برجسون الطبيعة : بأنها وظيفة ما لعضو ما . انظر للتفصيل منبعاً الأخلاق والدين لهنري برجسون ترجمة د/ سامي الدروبي و د/ عبد الله عبد الدائم ، ص ٦٣ .  
 (٢) انظر المصدر السابق ص ٦٣ .  
 (٣) منبعاً الأخلاق والدين، ص ٣٣٦ .

### صفات الإنسان الأساسية

ويتصف هذا الإنسان بصفتين أساسيتين:

الصفة الأولى: العقل.

الصفة الثانية: العيش مع غيره في صورة جماعية أثناء الحياة<sup>(١)</sup>، وهو ما يعبر عنه العلماء بقولهم (الإنسان اجتماعي بطبعه) وعلى هاتين الصفتين تقوم الحياة الإنسانية. وإليك تفصيلهما في ضوء الفكر البرجسوني من غير نقد، لأن الأجزاء التي تحدث عنها في الصفتين من المُسلّمات البشرية، منذ وجود أول إنسان على وجه الأرض إلى هذا اليوم، ولربط أجزاء الموضوع سابدأ بالصفة الثانية لأن عليها بناء الأولى في الفكر البرجسوني.

### الإنسان الاجتماعي

يعيش الإنسان في تجمعات بشرية لا يستطيع الانفكاك عنها، مركزها الفرد، فقد سهل لنا المجتمع سبل التجمع فلكل منا أسرة، ولكل منا صنعة يعيش منها، ولكل منا نسبة ينتسب إليها، كالحى والمركز والمقاطعة (إن المجتمع قد هون علينا الأمر، خاصة بما وضع بيننا وبينه من وسطاء، فلكل منا عائلة، ولكل منها مهنة، وكل منا ينتسب إلى ناحية ومركز ومقاطعة، فإذا كان اندماج الطائفة من هذه الطوائف في المجتمع تاما، كان حَسْبُ أحدنا أن يقوم بواجباته تجاه الطائفة، حتى تبرا ذمته حيال المجتمع.

المجتمع دائرة مركزها الفرد، وبين المركز والمحيط قد اصطفت دوائر مركزية، آخذة في الاتساع، تمثل الطوائف المختلفة التي ينتسب إليها الفرد، وكلما اقتربنا من المحيط إلى المركز ضاقت الدائرة<sup>(٢)</sup>

فالتجمعات البشرية مثلها في ذلك مثل خلية النحل، وقرية النمل، فإن الفرد فيها يعمل لمصلحة الجماعة من غير أن يشعر بذلك، فإن كان العمل ناجحا في الخلية والقرية، لأنه ينطلق من الغريزة، فإن نجاحه مضمون لدى البشر، لازدهار العقل، فيجبرُ الفكرُ الإنسانَ على العمل لمصلحة الجماعة، لأن بقاءها يضمن بقاءه، وإن المصير المظلم هو الذي ينتظر الفرد إذا حصر جهوده في مصلحته الفردية<sup>(٣)</sup>.

### الحياة الاجتماعية

فالعادات والطاعات قوام الحياة الاجتماعية، وتحل العادة في الإنسان محل الغريزة في الحيوان، للحفاظ على المجموع، يستفيد الفرد منه ضمناً دون شعور (وتكون العادة في هذا الكائن الحي الصناعي بمثابة الضرورة في أفعال الطبيعة، فالحياة الاجتماعية من هذه الناحية طائفة من العادات المتأصلة، تفي بحاجات الجماعة)<sup>(٤)</sup>

فأنا الاجتماعية المستترة في داخل كل منا، هي التي تقودنا إلى الاشتراك في العيش مع الآخرين، وتصل هذه المشاركة عن طريقها أحياناً إلى الاعتراف بما يضر الفرد، فيتحمل الضرر مقابل العزلة، والعيش على الانفراد (فالمجرم في محاولته إخفاء جريمته، حتى يقضى

(١) انظر منبع الأخلاق، ص ١٢٨.  
 (٢) منبع الأخلاق، ص ٢٤ وانظر ص ٣٩ و ص ٢٥٠.  
 (٣) انظر منبع الأخلاق، ص ٣٠ و ص ١٣٣.  
 (٤) منبع الأخلاق، ص ٤ وانظر، ص ١٠٥.

على كل معرفة، يمكن أن تتطرق إلى ضمير إنسان، كأنما يحاول أن يبطل الجرم نفسه، وبعد أن يظفر المجرم بإخفاء جريمته عن الناس، لا يستطيع أن يخفيها عن نفسه، فهو ما زال يعرف أنه مجرم، ومعرفته تنأى به عن المجتمع شيئاً فشيئاً، بعد أن كان يرجو أن يظل فيه بمحوه آثار الجريمة.

إنه يعرف أن الاحترام الذي يوجه إليه الآن، إنما هو يوجه إلى شخصه السابق، الذي لم يعد موجوداً، ويعرف أن المجتمع لا يخاطبه هو، بل يخاطب شخصاً آخر غيره، أنه يعرف منه فيعيش بين الناس، وهو أكثر عُزلة مما لو كان يحيا في جزيرة خالية، لأنه في عزلة يحمل معه صورة المجتمع التي تحف به وتسنده.

أما الآن فقد انقطع عن المجتمع، وعن صورته معاً، حتى إذا قدر له أن يعترف بجريمته عاد إلى حظيرة المجتمع، وُعومل عندئذٍ بما يستحق أن يعامل به، واتجه الناس إليه هو نفسه، لا إلى شخص آخر غيره، وهكذا يستأنف تعاونه مع الآخرين.<sup>(١)</sup>

ويكافئ المجتمع فرد المذنب بالتضامن والاحتواء لما ارتكبه، وتصل هذه المكافأة الرابطة بين المجتمع والفرد إلى حد شعور المجتمع نفسه بذنب فرد، وكأنه شارك في ارتكابه (إن فكرة المسؤولية الفردية ليست على ما يظن من البساطة، إنها تتضمن تصوراً لفعالية الفرد مجرداً بعض التجريد، ونحن لا نعتبرها مستقلة إلا لأننا عزلناها عن الفعالية الاجتماعية، والواقع أن التضامن الاجتماعي بين أعضاء الجماعة، كان من القوة في أول الأمر، بحيث كان الجميع يشعرون أنهم مشاركون إلى حد ما، في ذنب الفرد الواحد).<sup>(٢)</sup> خوفاً من أن تصيب عدواه جميع أعضاء المجتمع.

### مناقشة الحياة الاجتماعية

ما قاله برجسون من تأنيب الضمير عند ارتكاب المخالفة، قائم في الفرد لا محالة، ويقدم الإسلام إلى مثل هذا الفرد المذنب، طرق الخلاص وإعادة الثقة إلى (أنا) المجروحة، في صورة أ - التوبة إلى الله والرجوع إليه بالشروط المعتمدة، لأن التوبة تجب ما قبلها. ب - إقامة العقوبة الشرعية حديّة كانت أو تعزيرية، فإنها ترفع عنه اللوم الداخلي. ت - العفو من صاحب الحق المجني عليه، وقد حث الإسلام على ذلك. فكل ذلك كفيلاً بإزالة اللوم الداخلي، ورفع العزلة عنه، وإعادته إلى لُحمة المجتمع.

### الصفة الثانية للإنسان (العقل)

توقف تطور الحياة بوصوله إلى الجسم البشري، وعوضت الطبيعة التطور بإبداع العقل في الإنسان، فحل محل التطور، فارتقى بالفكر الإنساني فصنع المعجزات الآلية، التي تسهل مهام حياته، إلا أن رؤيته لمن حوله ممن خرمهم الموت ينال من عزمه، وبذلك تدخل حركة الحياة في البطء الملموس، (فإذا رأى كل من حوله يصير إلى الموت أيقن أنه هو أيضاً ميت، إن الطبيعة حين وهبت له العقل قد أدت به إلى هذا اليقين شاء أم أبى، وهذا اليقين يعرقل سير الحياة، فلئن كانت وثبة الحياة قد صرفت سائر الكائنات الحية عن تصور الموت، فإن فكرة الموت لا بد أن تبطئ حركة الحياة)<sup>(٣)</sup>

(١) منبع الأخلاق، ص ٢٢ - ٢٣ وانظر، ص ٢٠.

(٢) منبع الأخلاق، ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٣) منبع الأخلاق، ص ١٤٢ - ١٤٣.

والعقل في نظر برجسون (ملكة يستخدمها الإنسان في التخلص من صعوبات الحياة) (١) وإن عمله لا ينحصر في الفرد فتحقق له أنانيته، فلا ينظر إلى المجموع، بل أن عمله وإن كان في البداية لمصلحة الفرد، إلا أنه لا يستطيع التخلص من تحقيق مصلحة المجتمع الذي يضغط عليه، رغم عدم مشاهدته لذلك الضاغط. (٢)

### التلخيص

يمكن تلخيص ما قاله برجسون تجاه العقل في أربعة نقاط:

- ١- وقف تطور الحياة لتحقيق بغيته في الإنسان.
- ٢- العقل يصنع الآلات التي تسهل مهام الحياة.
- ٣- وجود الموت يبطل حركة سير الحياة.
- ٤- ملكة العقل ينحصر عملها في تحقيق المصلحة الفردية أولاً، إلا أن المصالح الاجتماعية تجبره على الرضوخ لتحقيقها.

### مناقشة الصفة الثانية للإنسان

أولاً: عند النظر في النقطة الأولى، نجد برجسون يجزم للفارئ أن التطور قد توقف، فلا داعي إلى البحث في سيره اللاحق، بل اقطعوا الأمل، وارضوا بما قلت، ولا تلحقوا المستجدات القادمة بالتطور.

ولا شك أن قبول مثل هذا الجزم يقود الإنسان إلى ترك الملاحظة الدقيقة التي هي نواة الإبداع، واجراء التجارب لتحسين المنتوجات الحيوية وغيرها، لذا لم يمثل له أحد في الغرب في مسيرة التقدم المادي.

فها هي التحسينات الزراعية والحيوانية قائمة على قدم وساق، فالمنتوجات الزراعية ربما لِحَقِّهَا التطور أكثر من غيرها، فوجود البيوت المحمية، وتطويع بذور تعطي ثمارها مرتين في السنة، بعد أن كانت حولية الثمار، خير دليل على ذلك.

أما التحسينات الحيوانية فالتطور فيها واضح، في ظهور سلالات من البقر، فيها وفرة اللحم ووفرة الحليب، وشدة المقاومة للأمراض، مما سبقها من هذه السلالات، كل ذلك خير دليل على رقي الحياة وتطورها إلى الأفضل والأمثل، وإنه سار على قدم وساق، ولم يتوقف ومضة من ومضات الزمن.

**ثانياً:** وعند النظر في النقطة الثانية من أن العقل يصنع الآلات التي تسهل مهام الحياة، فأمر مشاهد ملموس، ولكن الفضل لا يعود إلى العقل، بل إلى خالق العقل، وهو الله سبحانه جل وعلا، فهو الذي وهب العقل هذه القدرات الخارقة، التي لم يكن في مقدور الإنسان القديم تصورها فضلاً عن أن تكون مشاهدة تؤدي العمل.

ولربما فاقت الآلة الإنسان بجميع قواه في الأداء وضخامة الإنتاج، إلا أنها تظل في حاجة إلى العقل الذي يحمله الإنسان، فيظل صاحبه أعلى قيمة من الآلة في كل الأحوال، وذلك هو التكريم الرباني الذي جعله يتحكم في من هو أعظم منه، وإلى ذلك لَقَّتْ ربنا أنظارَ البشر أجمعين ليشكروه على ما أنعم عليهم من القوى المتعددة، منها قوى العقل، (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ

(١) منبعها الأخلاق، ص ١٠١.  
(٢) انظر منبعها الأخلاق، ص ١٠١.

وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا<sup>(١)</sup>

**ثالثاً:** وعند النظر في النقطة الثالثة من أن مشاهدة الأموات تبطئ حركة سير الحياة، قضية لا يختلف فيها اثنان، فالموت نذير البطة، فمتى أيقن الإنسان أنه ميت تقاعس عن الإنتاج والعمل. وقد عالجت الفطرة الجزء الأكبر من هذا التباطؤ، فقد فطر الله الإنسان على النسيان، فمنذ وجود أول إنسان على وجه الأرض والنسيان يسري فيه، (وَلَمَّا عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِي وَمَا نَجِدُ لَهُ عَزْمًا)<sup>(٢)</sup>

ولولا عمل النسيان في الجسم البشري ما وجد المرء لحظة راحة في حياته، تَصَوَّرَ إِنْسَانًا استطاع الكشف على أحداث مستقبله، وفيها أنه سيموت في سن الستين بحدث سيارة تهشم عظامه، فلولا النسيان لم يستطع العيش لحظة مريحة طوال حياته، فالنسيان من أعظم نعم الله التي تمحو من الذاكرة اللحظات الصعبة. أضف إلى ذلك أن شرع الله الأخير دعم الحث على العمل، رغم يقين البشر بالموت، فأمر بإنتاج العمل حتى في ساعة الإشراف على مفارقة الحياة، ويقين المرء أنه لن يستفيد من هذا العمل الذي يقوم به الآن، فقد صح من قوله صلى الله عليه وسلم (إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها)<sup>(٣)</sup> رابعاً: وعند النظر في النقطة الرابعة من أن العقل يحصر سعيه في تحقيق المصلحة الفردية، وأن المصالح الاجتماعية لا تتحقق عن طريقه إلا بالإكراه والجبر. إطلاق الحكم بهذه العموميات أمر فيه نظر، فإن العقول البشرية تتجه اتجاهين:

- ١- اتجاه تحقيق المصلحة الفردية.
  - ٢- اتجاه تحقيق المصلحة الجماعية، وتفضيلها على المصلحة الفردية.
- فالعقول الأولى رغم أنانيتها لا تستطيع حصر المصلحة في نفسها، دون أن يشترك معها غيرها، ف شراء اللباس مثلاً يحقق المصلحة الفردية للشخص في النظر القريب، إلا أن ذلك يحقق مصلحة غيره أيضاً، فالبايع حقق من البيع مصلحته، وطلبه لمثيل اللباس المباع يحقق مصلحة الصانع، وطلب الصانع قماشاً لصنع المثلث يحقق مصلحة مصنع النسيج، وهكذا دواليك.
- فالمصلحة الفردية البحتة شيء خيالي يمكن تصوره في عالم العقل، لا عالم الواقع، فالأنانية الصرفة لا وجود لها، وكل الذي يمكن رؤيته في المصلحة الفردية أن صاحبها يستطيع تقديمها على مصلحة غيره فحسب.
- وشرع الله الأخير يحث المسلمين على تبني مصلحة الشخص ذاته، ومصلحة أخيه المسلم معاً، دون فارق زمني على الإطلاق، بل ربط ذلك بالإيمان وجوداً وسلباً (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)<sup>(٤)</sup> بل جاء مدح القرآن للمسلم المؤثر على نفسه، وتقديم احتياجات غيره على احتياجاته، وإنه المبدأ الأمثل لخير البشر (وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

(١) سورة الإسراء آية ٧٠ .

(٢) سورة طه آية ١١٥ .

(٣) مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٨٤ و ١٩١ .

(٤) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فتح الباري ج ١ ص ٥٦ .

وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١)

**وختلاصة القول:** إن العقل يدرك الصالح والضرار من أمور الحياة، ومجالات عمله العالم المادي المحسوس، عالم السنن الكونية الإلهية، فيستخرج مكنونها، ويربط بين عللها وأسبابها، ومقدماتها ونتائجها، ومن ثم تستمر عجلة التقدم البشري إلى الأمام، ومتى خاض في غير هذا المجال كبا وتعثر، وكلف صاحبه فوق طاقته، فيكون نصيبه الضعف والنتية. ليت برجسون توقف في هدم المعرفة إلى هذه الجزئيات فحسب، إلا أن الرجل تجاوز ذلك، فكتب عن تصوره للأخلاق، وأنها مرت بخط التطور عند البشر، وهذا ما تجده في البحث الثاني: (هنري برجسون ومنبع الأخلاق دراسة نقدية).

## الخاتمة والنتائج

لكل جهد ثمرة ونتيجة، يصل إليها صاحب الجهد، وقد توصلت في جهدي هذا إلى النتائج التالية:

- ١- للتوجيه أثر ملموس، يبدأ الإنسان في اكتسابه منذ صباه ويستمر حتى الممات، وإن الأم والأب والمدرسة ومكان العمل من الموجهات الأساسية في الحياة.
- ٢- وُلد برجسون وترعرع وشب وشاخ في عصر استقر فيه إنكار وجود الله، وإن جهوده كلها تصب في مساندة هذا الاستقرار.
- ٣- حصر برجسون مصادر المعرفة في التجربة والمعمل، وقاده ذلك إلى التعرف على أحد الرافدين الذين يُكسبان الإنسان المعرفة، وإنكاره للرافد الثاني - الوحي - حرّمه من

<sup>١</sup> (سورة الحشر آية ٩ .



- الصنو الأحرصن في تقديم المعرفة، والإنسان الأمثل هو الذي يجمع بين الرافدين لتستقيم حياته، وتكتمل مصادر معرفته.
- ٤- نظرية دوام الحياة التي قدمها برجسون محاولة يائسة لإقناع الناس، بأن الحياة الدنيا هي الأولى وهي الأخيرة.
- ٥- نظرية نشوء الحياة وتطورها عبر المراحل الثلاث وَهُمَّ أنشأه الخيال البرجسوني، لا يستند إلى دليلٍ معلمي، أو دليل من الوحي المنزل من عند الله عزوجل.
- ٦- علم المورثات (الجينات) يدحض افتراء التطور بجميع فئاته، ولو عاش برجسون إلى عصرنا الحالي، وشاهد المعلومات المتاحة في علم الوراثة لأنكر على نفسه، ولرجع عن كثير من أفكاره.
- ٧- قد توقف التطور بوصوله إلى الإنسان، وإن العقل البشري حل محله، فلا حاجة إلى إحداث أنواع جديدة من الحياة، بل العقل البشري يقدم المعجزات عن طريق المصنوعات التي تخدم الإنسان فلا حاجة إلى شيء سوى العقل.
- والحق أن العقل البشري منحة إلهية، قادر على تقديم المفيد والضرار إلى البشر، وإن الوحي هو صمام الأمان لهذه الآلة، وإن محل عملها هو المخلوقات، ومتى ترك هذه الدائرة وعمل في الغيبات قاد صاحبه إلى الضلال، فليُحصن الإنسان عقله بأوامر الوحي إيجابًا وسلبًا.**

## قائمة المراجع

- ١- القرآن الكريم.  
كتب السنة
- ٢- سنن الترمذي (جامع الترمذي) للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، إشراف ومراجعة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ طبعة دار السلام، الطبعة الثانية ١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠م.
- ٣- صحيح البخاري لإمام المحدثين محمد بن إسماعيل البخاري (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي وإشراف الشيخ محب الدين الخطيب المطبعة السلفية ومكنتبتها، القاهرة ١٣٨٠ هـ.
- ٤- صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، إشراف ومراجعة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ طبعة دار السلام، الطبعة الثانية ١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠م.

- ٥- مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ، دار الفكر، بيروت لبنان.
- المراجع العامة.**
- ٦- الأحياء (كتاب الأحياء) المقرر للصف الثاني الثانوي الفصل الدراسي الأول، ص ١٤٤ لمدارس المملكة العربية السعودية طبعة ١٤٢٩-١٤٣٠ هـ.
- ٧- الأناجيل (كتاب العهد الجديد لرينا ومخلصنا يسوع المسيح) دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط دون تحديد مكان الطباعة، وسنة الطباعة، واسم المطبعة.
- ٨- بروتوكولات حكماء صهيون (الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون) ترجمة محمد خليفة التونسي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠ م.
- ٩- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير طبعة مطابع المختار توزيع مكتبة دار التراث القاهرة دون تحديد سنة الطباعة.
- ١٠- التوراة السامرية ترجمة الكاهن السامري: أبو الحسن إسحاق الصوري مطبعة دار البيان القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٨ = ١٣٩٨ هـ.
- ١١- التوراة العبرية، طبعة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، دون تحديد السنة، أو مكان الطباعة، أو سنة الطباعة.
- ١٢- روضة الأنوار في سيرة النبي المختار لصفي الرحمن المباركفوري، طبعة دار السلام، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣ م دون ذكر المطبعة ومكان الطباعة.
- ١٣- الطاقة الروحية لهنري برجسون، ترجمة د/سامي الدروبي، الطبعة الثانية، ١٩٦٣م، دار الفكر العربي دون تحديد المكان.
- ١٤- الطاقة الروحية لهنري برجسون، ترجمة د/ علي مقلد طبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١١هـ = ١٩٩١ م.
- ١٥- قصة الفلسفة الحديثة لأحمد أمين و زكي نجيب محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعة ١٣٦٨هـ = ١٩٤٩م، دون ذكر مكان الطباعة.
- ١٦- كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني طبعة دار القلم دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م.
- ١٧- المدخل إلى ميتافيزيقيا لهنري برجسون ترجمة الدكتور محمد علي أبو ريان، الطبعة الثالثة ١٩٧٤م، دار الجامعات المصرية بالإسكندرية.
- ١٨- مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب طبعة دار الشروق، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣ م.
- ١٩- المعجم الوسيط لمجموعة إشراف عبد السلام هارون المكتبة العلمية طهران دون تحديد السنة.
- ٢٠- منبع الأخلاق والدين لهنري برجسون، ترجمة د/ سامي الدروبي و د/ عبد الله عبد الدائم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، طبعة ١٩٧١م دون تحديد مكان الطباعة واسم المطبعة.
- ٢١- الموسوعة العربية الميسرة لمجموعة مؤلفين بإشراف محمد شفيق غربال طبعة دار الشعب، القاهرة، صورة لطبعة ١٩٦٥ م.

٢٢- نوابغ الفكر الغربي ٣ برجسون، دار المعارف، دون تحديد السنة أو المكان أو اسم المطبعة.

### المراجع غير العربية

٢٣- Challaye Bergson Paris Editons Mellotte Collection Les nouvelle edition 1947.

٢٤- CF. La Gazette de Lausanne du 29 Ceptembar 1941 Une lettre de M me Henri Bergson.

٢٥- Energie Spirituelle: H-Bergson, Paris Editons Mellotte Collection Les nouvelle edition 1949.

٢٦- H. Bergson: Essai sur Les Donnees Immediates le Conscience.

٢٧- Raissa Maritain: Henri Bergson Souvenirs, in Bergson Neuchatal, 1943.

## المحتويات

الصفحة	الموضوع
٢	المقدمة و فيها:
٢	أصناف الباحثين في فكر برجسون
٣	أسباب اختيار البحث وخطته
٥	الفصل الأول: برجسون حياته وعصره
٦	ولادته وطفولته
٦	نشأته العلمية

٧	عمله
٨	مكانته بين أقرانه ومنصبه
٩	مؤلفاته
١٠	أسلوبه في أبحاثه
١١	وفاته
١٢	عصر برجسون ومميزاتها
١٤	الفصل الثاني: برجسون والنظريات المُمهدة للتطور
١٥	ممهّدات التطور
١٥	نظرية نبذ المعرفة الميتافيزيقية
١٦	مناقشة نبذ المعرفة الميتافيزيقية
١٩	نظرية المعرفة الحدسية
١٩	مناقشة نظرية المعرفة الحدسية
٢٠	نظرية دوام الحياة
٢١	مناقشة نظرية دوام الحياة
٢٤	الفصل الثالث: برجسون وتطور الحياة
٢٥	نظرية نشأة الحياة
٢٦	مناقشة نظرية نشأة الحياة
٢٩	مناقشة مراحل تطور الحياة
٣٤	الفصل الرابع: برجسون وتطور الإنسان
٣٥	برجسون وتطور الإنسان
٣٥	صفات الإنسان الأساسية (الصفة الأولى: اجتماعي بطبعه)
٣٥	الإنسان الاجتماعي
٣٧	الحياة الاجتماعية
٣٧	مناقشة الحياة الاجتماعية
٣٨	الصفة الثانية للإنسان (العقل)
٣٨	مناقشة الصفة الثانية للإنسان
٤١	الخاتمة والنتائج
٤٢	قائمة المراجع
٤٤	المحتويات (الفهرس)